٥٣١

531

HARLEQUIN

عبير

www.elromancia.com

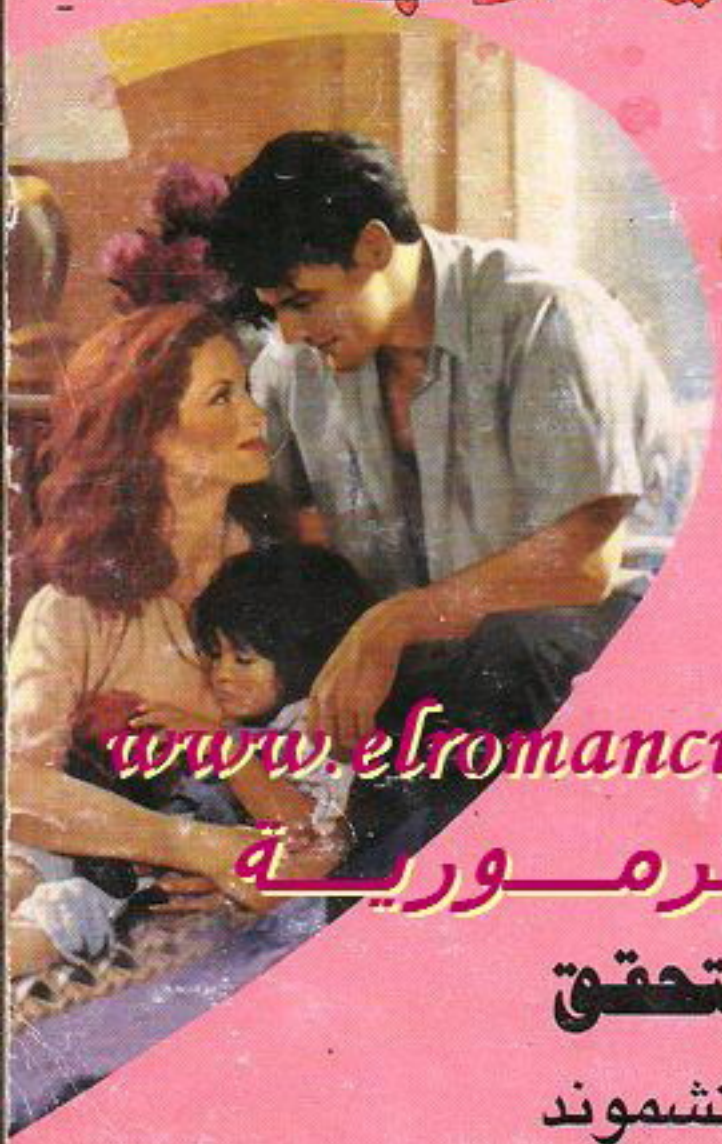

مرمورية

حلم يتحقق

ايما ريتشموند

حلم يتحقق

ايما ريتشموند

لو ان خطيب دافينا لم يتركها لأجل الفتاة تعتبرها من افضل الصديقات، لما كانت تعرفت على جويل جيلمان. والآن وبعد اربع سنوات من تصادمهما وافتراقهما، يبدو ان الزمن لم يمح ذكرياتهما الماضية، لكن جويل مرتبط بامرأة اخرى وله منها ابنة صغيرة اسمها ايمي. لكن وعندما طلب جويل منها ان تهتم بها، وجدت دافينا بانه الآن قد اتتها فرصة مؤقتة لتجرب التعامل مع الاطفال، لأن ذلك ما كانت تطمح اليه دائماً.

لبنان: ٣٠٠٠ ل.ل – سوريا: ٦٠ ل.س – الكويت: ٧٥٠ فلس – البحرين: ١ دينار – قطر: ١٠ دراهم – السعودية: ١٠ ريالات – الامارات: ١٠ دراهم – الاردن: ١ دينار – مصر: ٤ جنيه.

«هل تذكرين؟»

طأطأت دافينا رأسها بذهول بينما اخذت تستعيد بذاكرتها كيف بدأ كل ذلك.

تمتم جويل: «غرفة تعبق بدخان التبغ، الجميع يستمتعون بأوقات سعيدة، الا أنت وأنا، كنا نقف إلى الحائط في اتجاهين مختلفين من الغرفة...»

اصر على ان يرافقها إلى بيتها.

سألها: «هل تشعرين بالبرد؟»

همست: «فقط في الاسابيع الأولى من العام الجديد، حيث اشعر بالبرد الشديد خاصة في ليلة من ليالي كانون الثاني (يناير).»

«نعم، الليلة التي كنت ستبدئين فيها شهر العسل، واليوم الذي كنت ستتزوجين فيه.»

إيما ريتشموند

ولدت الكاتبة خلال الحرب في كنت الشمالية. كانت طفولتها مليئة بالحركة والنشاط والمحبة والدفء. تزوجت ولها ثلاث بنات رحلن عنها ليتزوجن، ربما لسخطها وتذمرها المتواصلين! انها مولعة بالقراءة بشدة، وكاتبة ملتزمة، ولقد اصبحت جدة منذ فترة قصيرة. تحب الحياة ودنيا الاحلام منها. وكل الذي تحتاجه الآن لتجعل حياتها كاملة هو، مدبرة منزل مثل الأمس!

٥٣١

khouloub Abir 531

حلم يتحقق

إيما ريتشموند

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

الفصل الأول

«ومع أن الناس يميلون إلى زراعة الأعشاب الفريدة في حدائقهم لاستعالها في أنواعٍ عديدة من المأكولات، مثل: النعناع، والقصعين...» ورفعت دافينا رأسها لتبتسم إلى محدثتها. لكنها تجمدت في مكانها فجأة، وحدقت غير مصدقة بالرجل الذي يقف في الطرف الآخر من الغرفة. كان مستنداً إلى الحائط، وقد بدا عليه التفكير العميق. ثم وكأنه شعر بأنه مراقب، رفع رأسه، فعرفته دافينا في الحال. آه، إنه جويل جيلمان.

تسمرت في مكانها بذهول ودهشة، وأخذت تنظر من حولها بذعر وخوف، مثل الحيوان الذي يقع في مصيدة ويفتش عن منفذ يمكنه من الهرب.

فسألتها ماريا بقلق: «هل أصابك مكروه؟ لقد شحب لون وجهك.»

«ماذا؟» قالت دافينا ملتفتة إلى ماريا، وبدت ملامح وجهها غير طبيعية فكأنها نسيت حتى من هي، فتراجعت عن دهشتها واستغرابها واستدركت قائلة: «لا. لا. إنني بخير.» لقد كذبت على ماريا، فهي ليست بخير، ولكن ماذا عساها ان تقول غير ذلك؟ فصديق قديم ظهر فجأة من جديد؟ ثم تابعت بارتباك: «يجب أن أذهب! لقد تذكرت بأنني لم أدون بعض الملاحظات الهامة... انني بحاجة إليها لأعمال الغد. آسفة، سأراك في صباح يوم الغد.» أدركت أنها كانت

تتفوه بكلام لا نفع منه، دون أن تفكر بالكلمة التي تقولها، لأن همها الوحيد كان في أن تخرج من هذا المكان وفي أقصى سرعة. وضعت نظارتيها على طاولة قريبة، وحشرت نفسها خارجة بين جمع من السيدات لتصطدم بعد ذلك بالحائط، فابتسمت بخجل وارتباك واعتذرت ثم أسرعت بخطى متعثرة نحو الباب.

وجدت الخادمة في القاعة تقوم بأعمالها المكلفة بها، فابتسمت دافينا لها باعياء قائلة: «اشعر بصداع في رأسي.»

«فينا؟»

عرفت صاحب الصوت، ولكنها تعمدت عدم الانتباه. وأخذت ترتجف مذعورة لدرجة انها خشيت السقوط على الأرض الشديدة اللمعان والنظافة من المواد التي تستعمل عادة لذلك. ثم تقدمت بحذر وخوف إلى الباب، ولكن يداً قوية أمسكت بيدها لتمنعها من القيام بخطوة أخرى، تسمرت في مكانها وشعرت كأنها أصيبت بشلل تام، وكيف لا وقد ظهر أمامها من جديد.

«فينا؟»

انها لا تريد الاجابة، بل تريد أن تصرخ عالياً وأن تقول بأنها ليست فينا وبأنه مخطىء في تصوراته. ولكنه لم يترك يدها، بل أدارها بهدوء لتنظر إليه وجهاً لوجه، ونظرت ولم تستطع التفوه بكلمة واحدة، لكنها تغلبت على نفسها ونطقت باسمه فقط دون اية كلمة أخرى: «جويل.»

لكنه لم يبتسم لها، فأي شخص آخر كان قد ابتسم في مثل هذا الموقف، فكرت دافينا وهي ما زالت تشعر بالخوف والقلق. أي شخص آخر كان قد تركها تذهب في حالها،

وبالأخص اذا كان يدرك بأن هذا هو مطلبها، أي شخص آخر عدا جويل.

«يجب أن أذهب.»

«ليس الآن.» وجاء صوته كما تتذكره، يتشدق بالكلام بثقة تامة، وكأن ما يقوله أمر يجب أن يطاع. كانت بعضاً من خصلات شعره الأسود كما تتذكره دائماً، تسقط على جانب وجهه المفكر الشارد في معظم الأحيان. ارادت أن تقول له بأن بايرون الشاعر الرومانسي توفي منذ زمن بعيد وأخذ معه الرومانسية أيضاً، وأنها لا تريد الوقوف معه أكثر.

فقال لها مقاطعاً حبل أفكارها: «لقد مر وقت طويل.»

كل ما استطاعت أن تجيب عليه: «نعم.»

«تبدين بحالة جيدة.»

«شكراً لك.»

ابتسم بعد ذلك، ولكن ابتسامته لم تكن عذبة ومشجعة كما يجب، لا بل التواء بسيط وساخر بين شفتيه مثل التي تتذكرها منه وأكثر، وبقي ممسكاً بيدها، فاستدركت ذلك أخيراً وقالت بتثاقل في نبرة صوتها: «لا. توقف.»

«شعر متموج وعينان مشعتان، مثل النمر. كان علي أن أرسم...»

«لا. توقف أرجوك.»

«لا!» قال جويل ذلك وتراجع بضع خطوات إلى الوراء، ولاحظت ان النظارات ليست في يده، هل يا ترى وضعها باهمال في أي مكان كما فعلت هي.

كان الخوف ما زال مسيطراً على حواسها، فكررت قائلة: «يجب أن أذهب.»

ابتسم بلؤم كعادته والتي تعرفها دافينا فيه حق المعرفة، فاستدارت واسرعت بالخروج من المكان. شعرت بالارتياح عندما اصبحت خارج المبنى تهبط السلالم القليلة، ولم تتوقف عن الركض الا عندما وصلت إلى بيتها، فهدأت نفسها ساعة دخلته، ثم أحكمت اغلاق الباب وراءها. كان قلبها يخفق بشدة واعصابها متلفة كأنها ستقع فريسة المرض. وتساءلت في نفسها، ما الذي كان يفعله جويل جيلمان في ذلك المكان؟ لماذا أتى الآن، بعد كل هذه المدة؟ فهي لم ترغب قط في أن تراه من جديد، حتى أنها لم تتوقع ذلك. لكنها الآن وفي مكان غير منتظر رؤيته فيه، وفي بلدة صغيرة في اندورا، وهي حفلة اقامتها تلك السيدة التي اعدت لها تلك المحاضرة، وجدته هناك كأنه كان يعلم بوجودها.

شعرت وهي على هذه الحالة من النفسية المضطربة، بأنها في حاجة ماسة لشراب الورد المنعش، فاتجهت إلى المطبخ لتفتح زجاجة الشراب التي أهدتها اياها ماريا مرحبة بقدومها، وسكبت في كوب كمية كبيرة منه بيد ترتجف دون أن تتمكن من السيطرة عليها، ثم جلست باسترخاء على اقرب كرسي، وأخذت ترشف الشراب على مهل. ولكن حالتها لم تتحسن بل ازدادت سوءاً، مما جعلها في النهاية تنعت نفسها بالغباء لهذه الانفعالات التي وصلت اليها. لقد تصرفت بخوف وجزع كأنها طفلة صغيرة عندما يكلمها الغرباء، عادت تؤنب نفسها وتوبخها وقد نبهت نفسها بأنها امرأة عملية ناجحة، فكيف سمحت لنفسها بأن تركض في شوارع اندورا خائفة كالأطفال؟

سمعت وقع خطوات خارج البيت، فارتعدت وعادت مخاوفها تسيطر عليها، وأخذت تحدق بالباب بعينين مذعورتين، ثم هدأت نفسها بعد أن سمعت صوت امرأة تعيش قريبة منها. وعادت أفكارها تتلاعب في رأسها، فمن المؤكد أنه لن يأتي، ولماذا عليه المجيء؟ مما لا شك فيه، انه لا يريد أن يتذكر مثلها صداقتهما في تلك السنوات الماضية، لكن ما يريده المرء عادة، ليس بالضرورة أن يعني بأنه لا يريده فعلاً.

انتهت من شرابها وهي تؤكد لنفسها بأنه لن يأتي وفي الوقت نفسه، لتصدق تأكيدها توجهت لتستعد للنوم. ولكنها هل ستستغرق في نوم عميق؟ انها ترى ساعات النوم طويلة ومؤرقة لأنها لم تستطع يوماً أن تنسى صداقتها بجويل، ولكنها مع ذلك، كانت كلما استفاقت صباحاً لتستقبل اشعة الشمس الذهبية وتنظر إلى السماء الصافية الزرقاء، كانت تنعت نفسها بالسخافة والغباء لاستسلامها دون أية مقاومة منها إلى أفكارها المضنية. وعادت الأفكار تتقاذفها من جديد اذا كان سيأتي ام لا، لتعود ولتؤكد لنفسها بأنه بالطبع لن يأتي، خاصة أنها لاحظت خوفه هو الآخر. وأخذت تقول في نفسها، بأن لا تفكر بهذا الموضوع وتبعده كلياً عن رأسها، لكن ما أسهل قول ذلك عند التنفيذ، ولنفترض انه حقاً أتى، فهل ذلك سيزعجها ويقلقها؟ لقد افترقا منذ فترة طويلة، وهي الآن امرأة مختلفة، وباختلاف كبير عن الماضي.

ومع ذلك، عندما استفاقت في الصباح لم تستطع أن تبعد جويل جيلمان عن تفكيرها مع أنها كانت تشغل نفسها

بتنظيم دفتر ملاحظاتها لهذا اليوم. وعادت تؤنب نفسها من جديد كي تتوقف عن تخيلاتها وتركز اهتماها فقط على العمل الذي بين يديها.

ارتدت ملابس غير رسمية من الحرير، انما أنيقة، وشدت من عزيمتها، ثم توجهت سيراً على الأقدام إلى المبنى القريب من بيتها والذي ستلقي محاضرتها في قاعته هذه الليلة. ذهبت باكراً كي تلقي بنفسها نظرة وتطمئن إلى أن كل الأمور مسهلة ومدبرة لها، ولتلتقي بالمشرفين على تنسيق المحاضرة التي ستلقيها، فكأنها تريد بعملها هذا أن تبتعد بتفكيرها عن جويل، لأن الخوف كان لايزال يقبض على صدرها. وعندما التقت بالمشرفين، تكلموا معها بأدب وحماس وطمأنوها بأن كل شيء يسير بنظام ويسر. وكأنما هذه التنظيمات لها، أزاحت قسماً كبيراً من الخوف الذي سيطر عليها، فأسرعت إلى ماريا تعتذر لها لما بدر منها في الليلة الماضية، ثم قفلت راجعة إلى بيتها لتتناول طعام الغداء. تمكنت عندما اصبحت في الشارع ان تستمتع بجو هذا اليوم المشرق، فحيت بانشراح الجيران الذين يسكنون قريباً منها، إنهم جيران عابرون، وعندما تنتهي من محاضراتها، ستهجر هذا الجزء من العالم الذي أحبّت جماله ودفء طبيعته، وشوارعه الضيقة والهادئة، وقراه الصغيرة التي تحيطها الجبال العالية.

دفعت باب بيتها وهي تشعر ببعض بالتحسن، ولم تنتبه بأن الباب كان مفتوحاً، إلى أن وقفت مشدوهة لا تصدق ما تراه امامها. فقد وجدت جويل بقامته المديدة يقف في غرفة الجلوس، فصرخت بانزعاج: «لا... لا... لا أريدك هنا!»

«معك حق.» اجابها موافقاً وقد رسم كعادته شبه ابتسامة ساخرة على شفتيه.

فقالت له بعداء: «اذاً، لماذا انت هنا؟» وشعرت للحظات أن الغضب هو بمثابة سلاح لها تقاوم به مخاوفها التي تقبض على صدرها.

أجابها بوقاحة: «لقد كان الباب مفتوحاً.»

«وأنت تقتحم بيوت الناس بمجرد أن ترى الأبواب مفتوحة؟»

«لا، انما ايمي كانت تشعر بالتعب.»

«ايمي؟ وهل هناك شخص آخر معك؟»

أشار بيده إلى الوراء دون أن يحول نظره عنها، فنظرت دافينا إلى حيث اشار، ووجدت طفلة صغيرة تنام نوماً عميقاً على الكنبة. كانت الطفلة داكنة الشعر مثله تماماً وذات رموش طويلة وكثيفة، وهي تحتضن باحدى ذراعيها لعبة. فسألته بدهشة: «هل هي ابنتك؟»

«بالطبع، فأنا ليس من عادتي أن أرافق أولاد الناس إلى أي مكان.»

«من أين لي أن أعرف ذلك؟ وحتى أنني لم أكن أعرف بأن لك ابنة!» قالت دافينا ذلك ثم اتسعت عيناها وكأنها تذكرت شيئاً ما، فنظرت اليه متهمة ثم تابعت تقول: «وهل كنت قد انجبتها عندما...»

فنفى قائلاً: «تعنين عندما التقينا، لا، لا، لكن هل يجعلني هذا غير مرغوب بي أكثر؟»

لم تدر بما تجيبه، ولكنها اعتقدت بل وتأكد لها بأنه كان يغش زوجته ويلعب بالاعيبه معها. شعرت بالانزعاج والقلق

معاً، ولم تقو ساقاها على حملها أكثر من ذلك، فأسرعت تجلس على أقرب مقعد وتابعت تنظر إليه نظرات التعجب، كأنما الذي يجري أمامها ليس حقيقياً بل وهم من الأوهام. قابل نظراتها بنظرات ساخرة هازئة دون أن يتفوه بكلمة أخرى. فسألته بغباء: «ولكن ما الذي تفعله هنا؟ وهل سيليا معك؟»

«سيليا؟ لا ليست معي، لقد افترقنا منذ حوالي السنة.»

«مرة أخرى؟» سألته بهزء دون أن تتمكن من ايقاف نفسها عن ذلك.

«نعم، مرة أخرى.»

نظرت اليه نظرة بغضاء، وقد تساءلت في نفسها، لماذا يتصرف معها وكأنها هي المخطئة، ثم حولت نظرها عنه مشمئزة. هل أن ثقته بنفسه كبيرة لدرجة انه اعتقد بأن رؤيتها من جديد له سوف تسرها؟ لا. من غير الممكن ان يعتقد ذلك. عادت تنظر إليه مكرهة ورغماً عنها. كان بقامته المديدة وملامح وجهه يشبه الرجل الايرلندي أو ربما الاسباني، وكان يبدو عليه انه ينتظر شيئاً، لكن ما هو الشيء الذي ينتظره، ولماذا؟ وهل ينتظر منها ابتسامة؟ لكي تستعيد معه ذكرى الصداقة التي كانت تربطهما ببعض؟ ولكن هل يعقل ذلك، وهي تعاني أشد المعاناة النفسية لوجوده في غرفة جلوس بيتها؟

فكررت على مسامعه بعناد: «لا اريدك هنا.»

«اعرف.»

«اذاً، لماذا أنت هنا؟»

ابتسم بخبث وكأنه أسعده الانزعاج والقلق الذي تعيشه

في هذه اللحظات، وقال: «لأن ماريا أرشدتني إلى مكان سكنك.»

«لا تكن...» توقفت عن الكلام فجأة وعبست لأنها تذكرت شيئاً هاماً، ثم تابعت: «هل تعرف ماريا؟»

«لا، انما سألتها فقط أين تقيمين في الوقت الحاضر.»

فقالت في نفسها، انه تصرف غير مقبول من ماريا خاصة وأنها لا تعرفه جيداً، ثم قالت له غير مصدقة: «واعطتك عنواني بهذه السهولة. ولكنها لم تخبرني بشيء من ذلك!»

«ألم تقل لك حقاً؟»

«لا!» وتساءلت دافينا لماذا حقاً لم تذكر ماريا ذلك امامها، فالمنطق والعقل يفرضان عليها أن لا تخفي مثل هذا الأمر عنها. وتابعت تنظر إليه عابسة، ثم قالت: «واعتقدت من جهتك أنها قد تكون فكرة جيدة لو قمت بزيارتي.»

«لا، اردت فقط أن أجد مكاناً آمناً لأترك ايمي فيه.»

«مكاناً لتترك فيه... وهل أنت عازم أن تتركها معي؟ فأنا لست بحاضنة أطفال كما تعلم!»

وافق على كلامها ببرودة شديدة حتى كادت أن تصرخ في وجهه، ولكنها سيطرت على أعصابها بينما كان يقول: «أعرف جيداً بأنك لست بحاضنة أطفال، ولا أفكر أن أتركها معك إلى الأبد، بل فقط لأنها تغط الآن في نومها العميق.»

فسألته بسخرية متمنية في نفسها لو أن بإمكانها أن تخفي ابتسامته الساخرة عن وجهه: «وترى هذا الأمر في غاية البساطة، أليس كذلك؟ يسرني جداً أن أكون في خدمتك!

وأرجوك أن تتوقف عن الظهور بأنك مقتنع تمام الاقتناع بما تطلبه مني! فالأمر ليس بلعبة!» ولم تقو على البقاء جالسة أكثر من ذلك، فنهضت من مكانها دون أن تعرف كيف ستعالج هذا الأمر، ومشت إلى رف صفت عليه مجموعة من التحف المزخرفة وبدأت تعيد ترتيبها بيد مرتجفة، ثم قالت له بغضب: «لكن لماذا اخترتني أنا؟»

«ذلك لأن ايمي كانت تشعر بالتعب، وكان بيتك الأقرب لأدخلها اليه.»

استدارت بسرعة لتقول بحنق: «وهل هذا بنظرك يعطيك الحق في اقتحام بيتي؟»

ابتسم ابتسامة باهتة وسألها بلطف: «لماذا أنت غاضبة هكذا يا دافينا؟»

«أنا لست غاضبة! كما وأنني لا أصدق كلمة من الكلمات التي تنطق بها، وأعني حقاً بأنني لا أصدقك! كما وأنني لم أعد أرى لك وجهاً منذ أكثر من أربع سنوات، لا كلمة منك، ولا رسالة، لا شيء...»

ثم عضت على شفتها السفلى، وقد لامت نفسها على ما كادت أن تنطق به، وعادت تحول نظرها إلى الرف الذي صفت عليه التحف المزخرفة.

ثم سألها بشك: «وهل كنت تنتظرين مني رسالة؟»

«طبعاً لم أكن انتظر منك أية رسالة! ولكن فقط لأننا كنا في يوم من الأيام...»

تابع يكمل الكلمة التي توقفت عندها ولم تسمح لها كرامتها بأن تنطق بها: «صديقان؟ الا تودين أن تذكريها وتتذكري صداقتنا يا فينا؟»

«لا تناديني بهذا الاسم! لا. لا أحب أن أتذكر شيئاً، فأنا لا أعتز ولا أفتخر بصداقتنا الماضية.»

هز بكتفيه غير مبال وقال: «لكنها حدثت.»

«نعم.» واجتاحتها الذكريات، وشعرت بالخجل من نفسها، لا من مشاعرها، لأنها هي التي أرادت تلك الصداقة بينهما، فأخذت تلاحقه من مكان إلى آخر بفيض من الاعجاب.

ثم حولت نظرها إلى الفتاة الصغيرة دون أن تنظر إليه، وسألته دون مبالاة، أو لنقل أنها تعمدت اللامبالاة، فالرجل الذي أمامها كان يتعمد هو الآخر اللامبالاة مهما كان يظهر عليه أي شيء آخر: «بالمناسبة، ما الذي جاء بك إلى أندورا؟»

«كلفت بمهمة هنا.»

فقالت دافينا متسائلة بذهول: «اذاً لماذا جئت بايمي معك؟ هل بسبب...»

«نعم، بسبب أماريليس، فلقد رفضت أن أتركها معها.»

دهشت دافينا قائلة: «رفضت أن... كم يكون عمر هذه الطفلة؟ هل هي في الثالثة أو الرابعة من عمرها؟ وكيف تسمح لها بان تفرض عليك القوانين وتجبرك على تنفيذها؟ لقد تغيرت كثيراً يا جويل! فجويل الذي عرفته مرة، لم يرضخ لأي كان، بالأخص للنساء.»

اجابها جويل بلطف يذكرها: «ولكنني رضخت لك مرة.»

توردت وجنتاها خجلاً، مع انها احتقرته في نفسها لأنه ذكرها بشيء كانت تحاول المستحيل أن تنساه، لكنها تابعت تقول ساخرة: «وهل تتصادق مع كل امرأة تلتقي بها في حياتك؟»

www.elromancia.com

أنكر عليها هذا القول قائلاً: «لا.»

«اذاً لماذا أنا؟»

«ربما لأنني لمست فيك اليأس والحزن! ولم أكن أعرفك بما فيه الكفاية، كما زلت حتى الآن.» ثم حول نظره إلى ابنته النائمة، وابتسم ابتسامة واهية، ولأول مرة منذ أن دخلت بيتها، وجدت عينيه تشعان بحنان وعطف وهو يقول: «بينما ايمي، يمكنها وباشارة من اصبعها الصغير ان تجعلني انفذ كل أوامرها.» كان ذلك بمثابة اعتراف صريح منه، وقد تنازل فيه عن كبريائه الذي تعرفه عنه.

لقد لمست نبرة المحبة في صوته مع ابنته الوحيدة، فألم قلبها لأنها شعرت بأن هذه الطفلة هي الشخص الوحيد الذي احبه.

وتساءلت في نفسها، هل في مقدوره ان يهب الحب لمن حوله. ان الذي لمسته في نبرة صوته من المحبة لم يتوجه بها اليها عندما كلمها ولا عندما ابتدأ بالحديث عن زوجته.

«هل أنت صاحب الحق الشرعي في حضانة هذه الطفلة؟»

«لا، ولكنني استطيع رؤيتها متى شئت.»

وابتسم ابتسامته الساخرة المعتادة واضاف بلطف: «وأكثر من ذلك، تستطيع رؤيتي هي ايضاً عندما تشاء. فهل هذا يفيدك بشيء ما؟»

رفضت ان تظهر له الارتياح، وقالت تغير مجرى الحديث: «انها تشبهك كثيراً.»

«نعم.»

ثم كلمت نفسها، لو أن الأحداث كانت مختلفة، لكانت ايمي ابنتها هي، لكن الأحداث على ما يبدو لم تكن مختلفة، إنما

الذي يختلف والذي لا تصدقه، أن يكون جويل والداً لطفلة.

ثم سألها بالصدفة: «هل يمكنني أن استعمل الهاتف؟»

«لا أملك هاتفاً.»

«أحقاً ما تقولين؟»

«قلت لا! فما من داع لك أن تسأل بشك في ذلك... فلو كان عندي علم وخبر بأن ضيوفاً غير مرغوب بهم امثالك سيأتون إلى زيارتي، لكنت طالبت بخط للهاتف إلى بيتي! أعلمك أن هناك هاتف للعموم في نهاية هذا الشارع.»

طأطأ برأسه وقال بينما كان يبتعد: «لن أتغيب كثيراً.»

أسرعت تقول بذهول: «هل أنت ذاهب الآن؟»

«سأتغيب لخمس دقائق فقط»

«وماذا لو أن هذه الطفلة استفاقت في غيابك.»

«لن تستفيق.»

«ولكنها قد تستفيق، وتجفل عندما تراني!»

«في هذه الحالة علينا أن نأمل في أن لا تكرهك من النظرة الأولى، اليس كذلك؟»

«تكرهني؟ ان الذي أفكر فيه هو أكثر من ذلك، انها قد تخشاني وتخاف مني!»

«لن يصيبها اي سوء، لأنها تعلم بأنني لن أتركها في مكان غير آمن.»

«آه، يا لها من فتاة ذكية حقاً!»

فاجابها هازئاً: «تماماً مثل والدها.»

«لم أعنِ هذا.»

«أعرف. هل هناك قهوة لي؟»

اربعة أعوام من الصداقة تمحى من الذاكرة وكأنها لم

www.elromancia.com

تكن. مشت باتجاه المطبخ وهي لا تدري ما الذي يسعها أن تقوله أو تفعله، وأقفلت الباب وراءها ثم اسندت ظهرها عليه مفكرة. اذاً، هذا كل ما في الأمر، ان جويل جيلمان وبعد أربع سنوات من الاختفاء، يعود مجدداً، وها هو الآن موجود في بيتها، والسبب الوحيد الذي دعاه لذلك، لأنه اراد مكاناً آمناً ليترك طفلته فيه، وليس لاجلها هي، ليس لأجل تلك السنوات الطيبة التي أمضياها سوياً. باختصار، لأنه كان يحتاج إلى حاضنة لطفلته! ولا أحد يدري ما شعرت به في تلك اللحظات من الصدمة والارتباك والانزعاج. لقد تعاهدا فيما مضى على الصداقة والوفاء والرباط الزوجي المقدس، ولكنه هل أحبها حقاً؟ وهل هي أحبته؟ ان ما تتذكره الآن هو أنها كانت في تلك الفترة معجبة به وبكلامه الذي كان يصوغه بروعة واتقان وكأنه درسه في الكتب، فتعلقت بكلامه ولم تستطع مفارقته.

استفاقت من ذكرياتها وذهبت لتملأ الابريق ماء وكلها عزم شديد في ألا تسمح له مرة أخرى بالسيطرة عليها بكلامه المعسول، ألا تدعه يشعر بأنها ترغب في ان يجدد صداقتهما مرة أخرى.

سألته دون أن تستدير نحوه: «كيف حال والدتك؟» لقد باشرت موضوعاً يسهل فيه عليها الكلام. كانت تعرف اشياء كثيرة عن والدته ناتالي جيلمان الممثلة القديمة، كما أنها كانت تعرف الكثير عن حياته الجانبية الطائشة.

«كما تعرفينها.»

«اذاً، لماذا لم تترك ايمي معها؟»

«قلت لك، اردت ان تكون ايمي معي، وحتى لو أنني طلبت

منها ذلك، لما وافقت، لأنها لا تتمتع بالأمومة بالكافية.»

«لا تكن سخيفاً، لقد انجبتك أنت.»

«نعم، انما في هذا العمر لا تحب الأطفال ولا تتحمل ضجيجهم.»

أدارت برأسها فقط نحوه وقالت بذهول: «وماذا يعني ذلك؟»

«كما تفهمينه وترينه أنت.»

«توقف عن سخافاتك، لا بد وانها كانت تحبك!»

نفى بحركة من رأسه.

«آه، لا أصدق...» قالت دافينا ذلك وأخذت تبحث في وجهه لعلها تفهم شيئاً منه، لكنها لم تر في ذلك الوجه سوى التواء قسمات وجهه اشمئزازاً واحتقاراً وبأنه يعني حقاً ما يقوله. شعرت بضيق في داخلها للمشاعر التي ما زالت تكنها له، وأخذت تشغل نفسها باحضار فنجاني القهوة وتابعت تقول: «هل تشرب ايمي شيئاً عندما تستيقظ؟»

«العصير، هذا اذا كان لديك بعضاً منه.»

اشارت برأسها يالايجاب وقد شعرت بنظراته المطوّلة اليها، فتوجهت إلى البراد مرتبكة لتحضر العصير وحاولت جهدها أن لا تتعثر قدماها وان تتصرف بطبيعة مطلقة، ثم قالت: «ما الذي قالته لك ماريا؟»

«بأنك موجودة في اندروا لتلقي محاضرة حول الأعشاب...» توقف فجأة واسترسل في الضحك ثم تابع يقول: «ما الذي جعلك تختارين مثل هذا الموضوع؟»

شعرت بالغضب من كلامه، وقد أحست باستخفافه بها وبالشيء الذي تقوم به بكل أمانة واخلاص، فالتفتت لتنظر اليه وجهاً لوجه وقد ضغطت على علبة العصير بيدها قائلة:

www.elromancia.com

«حسب اعتقادي، بل تأكدي، ان الأعشاب تلعب دوراً هاماً في كافة الأدوية، وأنها نافعة جداً، بينما...»

«حسناً، حسناً، وفري محاضراتك للعمل الذي جئت خصيصاً لأجله، انما سبب ضحكي هو في أنه لا يبدو عليك أبداً ان مثل هذا الموضوع قد يثير اهتمامك أنت بالذات.»

قالت تدافع عن رأيها: «ولِمَ لا؟»

هزّ بكتفيه دون مبالاة، مما جعلها تتساءل في نفسها، هل لديه الرغبة في نبش الماضي ومناقشته معها. ولكن لماذا يريد ذلك خاصة انه يعلم ويدرك بأنها ترفضه وتريد ابتعاده؟ لماذا يظهر من جديد وفي بيتها بالتحديد بعذر اقبح من ذنب؟

ابتعدت مشوشة الفكر لا تستطيع ان تفكر ما ستكون خطوته التالية، وتناولت كوباً لتسكب فيه العصير، ثم قالت: «ما الذي كنت تفعله في الحفلة؟»

«ربما للمشاركة معكم.»

لم تقو على التفوه بكلمة واحدة، وبدت تقاطيع وجهها كالصخر وهي تعيد علبة العصير إلى البراد.

ثم شرح اخيراً: «جئت لرؤية مارتن ديفيرا، لأنه يريد مني أن أرسم له صورة وجهه.»

فسألته بسخرية: «وهل هو مدعو إلى الحفلة؟»

«لا.»

«لكنك وجدتني هناك، وحسبت...»

نفى ما قالته بهدوء: «لم أحسب شيئاً. كنت في طريقي لرؤيته هذا الصباح، لكن ايمي تعبت فجأة...» ثم توقف عن الكلام لأنه يعلم بأنها تعرف بقية القصة.

«ولحسن الصدف فالصديقة القديمة دافينا تعيش في الجوار.» اكملت دافينا الكلام الذي توقف عنده. وبيدين مرتجفتين من الغضب، وضعت على الصينية الملاعق والسكر والحليب لتتابع بعد ذلك: «لهذا السبب فقط... على كلٍ، هذا لا يمنحك الحق... أنا لست في هذا المكان لتستغل وجودي فيه!»

فسألها بلطف بارد: «بالطريقة التي استغليتني بها مرة؟»

كانت ممسكة باحدى الملاعق عندما استدارت بسرعة لتنظر إليه باحتقار قائلة: «لم افعل ذلك أبداً!»

«لا؟»

«لا، لنقل اننا استغلينا بعضنا معاً.»

«هل هذا حقاً؟ أمر مضحك، اعتقدت ان ما كان بيننا اعجاباً ليس الا.»

انكرت قوله بحدة واحتقان: «لا، لم يكن من ناحيتك اي اعجاب بي، بل كنت تفكر بأمور أخرى رفضتها رفضاً قاطعاً.»

«حسناً، لنقل ذلك، هل تمكنت من نسياني طوال تلك الفترة؟»

«طبعاً تمكنت!»

أخذت عيناه الزرقاوان تحدقان بعينيها مباشرة ولللحظات طويلة قبل أن يقول معترفاً: «لكنني لم أتمكن من ذلك.»

اتسعت عيناها بدهشة وكأنها لم تصدق ما سمعته منه للتو وتسارعت دقات قلبها وهمست: «ماذا؟»

«انني...»

www.elromancia.com

قاطعته قائلة بقلق: «لا تفعل، لا تقل شيئاً...»

ابتسم ابتسامته الساخرة المعهودة، ثم تبدلت ملامح وجهه وقد حول نظره إلى النافذة، فتنهدت دافينا الصعداء، مفكرة بأن عليه أن لا يفكر بشيء ناحيتها... فالأمر سخيف ولا يعقل أن يكون حقيقة. على أية حال، فلديها حياتها الخاصة الآن، كما وأنها حياة ناجحة وكاملة! فسألت نفسها، هل حقاً حققت كل ذلك يا دافينا؟ ولنقل أنه فعلاً لم يستطع نسيانها، فلماذا لم يحاول مرة الاتصال بها؟

سألها بعد ذلك وبهدوء: «هل تظنين بأنني كنت فخوراً بالذي حدث؟»

تنفست بصعوبة وقالت: «لا.»

«لم أكن أقصد شيئاً عندما لم أبحث عنك... ولا أدري كيف حدث ذلك بيننا.»

أسرعت تقول: «لا تقل شيئاً أكثر، لقد شرحت بأن سبب ذلك... بأنني...»

«نعم أذكر ذلك، لكنك شرحت لي بطريقة قاسية، فاتصلت بك صباح أحد الأيام لتقولي لي بأنك كنت تستغلين صداقتي معاقبة وقهراً لصديقك القديم...»

صححت قوله قائلة: «لم يكن صديقاً، بل خطيباً.» وتذكرت كم تأثر حينها من كلامها ووصفها بالحقيرة. ورحل عنها تاركاً اياها في حيرة وذهول، ولم تتمكن مرور الأيام من أن تنسيها جويل. وعندما حاولت أن تتصل به من جديد، اكتشفت بأنه تزوج من امرأة غيرها، لذا فانه لم يعرف الحقيقة بأنها كانت تريده هو بالذات وما قالته حول معاقبة خطيبها السابق لم يكن سوى عمل طائش وصبياني منها.

«دافينا؟»

جفلت دافينا وعادت بذاكرتها إلى الواقع، وهي تحاول جهدها أن تبدو طبيعية.

«انني بحاجة إلى بعض المساعدة منك. هذا كل ما في الأمر، اكراماً للصداقة التي كانت تجمعنا في يوم من الأيام، واريد أن تعلمي بأنك واحدة من القلائل الذين اثق بهم.»

واحتارت فيما لو تثق بكلامه أم لا، لأنها وحسبما علمته وذلك من افواه الآخرين، بأنه مزاجي لا يستقر له رأي واحد سليم، لكنه ومن ناحية اخرى، احد أهم الرسامين.

لكنه يريد خدمة؟ خدمة لقاء الأيام التي جمعتهما في يوم من الأيام، حيث أنها وبإرادتها تخلت عنه. فبدأت تقول: «لكنك لم تحاول مرة...»

وعضت على شفتها تمنع نفسها من متابعة ما بدأت به، لأنها لم تكن تقصد ذلك بكل ما في الكلمة من معنى، فحولت نظرها إلى الملعقة التي كانت تلويها بيدها لا شعورياً.

«الاتصال بك؟ لا، هل عدت والتقيته من جديد؟»

«تعني بول؟ لا.»

«لقد كان غبياً.»

تنكرت لقوله قائلة: «لا، لقد كان صديقاً وفياً.»

سمعت بعد ذلك صوت القهوة تغلي فوق النار، فأطفأتها، وسكبتها بحذر في فنجانين وقالت: «هل تركتك سيليا بسبب...»

أجابها وهو يشعر بالزهو بنفسه: «بسبب امرأة اخرى؟ لا. كما أنها لم تتركني، لقد توصلنا إلى اتفاق يناسبنا.» توقف عن الكلام ليأخذ فنجان القهوة من يدها ثم تابع يقول: «هل سبق لك والتقيت بها؟»

أجابت دافينا: «لا.» فهي لم تر حتى كيف هو شكلها ولا يهمها ما قد تكون.

«لو تعرفت اليها لكنت أحببتها، لقد أحببتها أنا أيضاً لكن ليس كشريكة... ما كان يجدر بنا أن نعيش تحت سقف واحد.»

«لماذا فعلت ذلك إذاً؟» قالت دافينا ذلك وقد تساءلت في نفسها لماذا استعمل كلمة نعيش بدلاً من الزواج من بعضهما؟ هل لأنه لم يشعر معها برباط الزواج المقدس؟

شرح جويل وهو لا يحيد نظره عن فنجان القهوة: «كنت في ذلك الوقت رساماً ناشئاً وكانت هي تفضل الأعمال الناجحة...» ابتسم قليلاً وكأنه تذكر شيئاً يسره، ثم رفع نظره وقد اتسعت ابتسامته أكثر ليتابع قائلاً: «من يدري لماذا نقوم أحياناً ببعض الأشياء؟»

«لأنها تبدو لنا لأول وهلة بأنها فكرة جيدة.»

«كانت سيليا تحب أصحاب المناصب...»

اعترضت دافينا قائلة: «جويل! هل تعتقد نفسك أنت من أصحاب المناصب؟»

ابتسم ابتسامته الساخرة وقال مؤيداً كلامها: «لكنها من النوع الذي يروق له أن يكون تحت رحمة ورعاية أحد الأشخاص.»

«حتى عندما لم تعد بحاجة إليها؟»

وافقها قائلاً: «يمكنك أن تقولي ذلك، مع أن الأمور تزعزعت فيما بيننا.»

ذكرته قائلة: «ولكنك قلت لي بأنكما انفصلتما عن بعضكما.»

«نعم انفصلنا...»

قاطعته حانقة: «لا، لم تفعلا! فلا تكذب علي!»

اكفهر وجهه وقال بحدة: «أنا لا أكذب يا دافينا، ولم أكذب حينها ولا الآن، لكنك تريدين أن تفسري الأحداث حسب هواك، فهذه مشكلتك وليست مشكلتي. فاذا كنت تحاولين التخفيف من الذنب الذي اقترفته...»

قاطعته بعنف: «لم أشعر ابداً بالذنب!»

وبخها بلطف: «كان الأجدر بك أن تشعري بذلك حقاً.»

تورد خداها وحولت نظرها إلى الأرض، لأنها كانت قد شعرت فعلاً بالذنب وقتها وما زالت حتى اليوم.

ثم تابع دون أن يعلق بشيء على ما ظهر منها: «نعم. لقد افترقت عن سيليا، لكن الذي لم تعرفيه مني، هو أنني لم أخبرك بأننا بقينا نرى بعضنا الآخر. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي جاءت فيه إلي لتتهمني بأشياء كثيرة. فحصلت بيننا مشادة كلامية، وكنت وقتها في مزاج سيىء لا أحسد عليه بسبب المهمة التي اوكلت بها، والتي ربما قد لا تنجح. فخرجت مسرعاً كهبوب العاصفة حيث قادتني قدماي إلى الحفلة حيث وجدتك هناك...»

«نعم.» قاطعته بسرعة لأنها لا ترغب في أن تسمع من جديد ما حدث في الحفلة والذي تعرفه جيداً. وتابعت تقول: «ومن ثم رجعتما إلى سابق عهدكما.» قالت ذلك لأنها كانت تعرف حق المعرفة بأنه يحب سيليا، بينما هي، أي دافينا، لا تعني له شيئاً.

اجابها باختصار: «نعم.»

«هل عرفت بأمري؟»

www.elromancia.com

«ليس في ذلك الوقت، وهل تعتقدين بانني ذكرتك امامها؟»

اجابت: «لا بالطبع لم أفكر في ذلك، لكنها هل تعرف بشأني الآن؟»

«تعرف فقط ان هناك امرأة، ولكنها لا تعرف من تكون على وجه التحديد.»

سألته مستفسرة: «وهل عرفت غيري...؟ آه. آسفة. فهذا ليس من شأني.»

ارتسمت شبه ابتسامة على وجهه، ثم وجه نظره إلى فنجان القهوة قائلاً: «لا وألف لا. لقد انجبنا ايمي، وحاولنا أن ننسجم أكثر مع بعضنا، خاصة وقد قيدتنا ايمي واصبحت كل شيء في حياتنا. لكننا لم ننجح ولم نستمر، فسيليا لا تطاق، كما كنت من ناحيتي متحجر الأفكار لا أزن الأمور كما يجب، ثم حصل اخيراً بيننا الفراق، ولكن بطريقة توافقية أزالت عنا الغمامة السوداء، واصبحنا صديقين بعد ذلك.»

يا لها من رواية ارتجالية وهو المتمرس الخبير الذي يجيد صياغة كلامه، لكن ربما لا يكذب، أو لنقل وحسبما تعرفه دافينا بأنه لا ينطق بالحقيقة كاملة في رواياته. فسألته دافينا مشككة: «طالما أصبحتما صديقين كما تقول، لماذا لم تستطع ان تترك ايمي معها؟»

«كان باستطاعتي، انما أنا لم أرد ذلك. على كل حال، انها الآن مسافرة في رحلة سياحية إلى مكان ما، وكما تعلمين انني عادة اشك في تحركات الآخرين، ولكنني في الوقت نفسه قادر على أن أمنح الحب والعاطفة لابنتي

ايمي، كما أنني استمتع برفقتها في كل الأوقات.»

«جيد.» ليس عندها غير ذلك يمكن لدافينا ان تجيب عليه؟ وقررت أن تخرج من المطبخ الذي بدأت تراه يضيق عليهما، مشت باتجاه غرفة الجلوس فلحق بها جويل. شعرت بأنها ما زالت تميل اليه وعجبت من نفسها، مع انه من النوع الذي لا يعطي اهتماماً لأحد حتى لنفسه، وتعلم ايضاً بأنه لا يضع نفسه بالمقارنة مع أي شخص آخر. ويمكن وصفه بالأناني... ما عدا عندما يكون الأمر محصوراً بابنته الوحيدة. ولكن، تساءلت دافينا، لماذا عاد يبحث عنها؟

خيم عليهما صمت قليل رأت فيه دافينا بأن عليها أن تتكلم، فكأنما استمرار الكلام يمنحها الحصانة والأمان، فقطعت الصمت قائلة: «لقد كنت أقرأ عنك في الصحف من وقت لآخر.»

«لا اجرؤ على القول، بأنها ليست بالأخبار السارة.»

«لا. ماعدا الذي يختص بعملك، طبعاً.»

حولت نظرها اليه لترى وكما في كل مرة ابتسامته الساخرة، فأسرعت بخطواتها كأنها تريد الهرب والتخفي، إلى أن تشرق شمس يوم جديد لتبدأه بطريقة مختلفة.

كانت ايمي قد استفاقت من نومها وجلست على الكنبة وهي تحتضن لعبتها الصغيرة، فأجبرت دافينا نفسها على أن تبدو طبيعية أمامها. انها فتاة جميلة، ويبدو على ملامح وجهها الصبر وطول الأناة، لأنها تعودت أن تنتظر طويلاً وفي أماكن غريبة حتى ينتهي والدها من أعماله. ابتسمت لها دافينا، فوجدتها بعينيها الزرقاوين اللتين تشبهان

جويل إلى حد بعيد، تقيسها من رأسها إلى أخمص قدميها.

ثم قالت ايمي أخيراً: «لقد استفاقت لعبتي الآن.»

سألتها دافينا بنبرة ودودة ولطيفة: «آه، جيد، هل استمتعت بنوم مريح؟»

«نعم.» قالت ايمي ذلك ثم نظرت إلى والدها تنتظر منه اية اشارة.

ابتسم جويل لها، وحول نظره إلى دافينا قائلاً: «هل تسمحين بخمس دقائق؟»

«جويل...»

تنهد جويل ولم يقل شيئاً.

فقالت دافينا معترضة لكن بصوت منخفض: «انها لا تعرفني بعد!»

«لكنها تعرفني، وتعرف أيضاً بأنني لن أتركها في مكان غير سعيدة فيه.»

«ماذا؟ انها ما زالت في الرابعة من عمرها لتدرك مثل هذه الأمور!»

صحح لها: «انها في الثلاث سنوات ونصف.» وكأنما الستة أشهر الزائدة ستغير من حالها.

«عموماً هذا لا يهم.»

«إذاً، ما الذي يزعجك؟»

أجابته بالحاح: «انها لا تعرفني، كما وانني لا أعرف شيئاً عن مشاكل الأطفال وكيفية معاملتهم.»

أردف بتعال: «إذاً، ها قد أتتك الفرصة لذلك.»

اعترضت قائلة: «جويل، لا أريد أن أتعلم شيئاً من ذلك!»

«إذاً، سآخذها معي.»

«إلى غرفة هاتف العموم؟»

«لا، لمقابلة ديفيرا.»

«قد لا يكون يحب الأطفال.» ما بالها تجادله وهي التي كانت تريد في البداية أن لا يتركها معها؟

«إذاً عليه أن يتعلم محبة الأطفال، إذا كان يريد مني حقاً أن أرسم له صورة لوجهه.»

قالت بينما كانت تنظر إلى الفتاة الصغيرة: «لا تكن...» وتراجعت عن اتمام الكلام الذي أرادت أن تقوله، مع انها كانت تعلم بأنهما يتكلمان بصوت منخفض فلا يمكن للصغيرة أن تسمعه. وتابعت بغضب: «كم انك عديم العطف والاحساس! لا يجوز لك أن تجر ابنتك الصغيرة وراءك أينما ذهبت...» توقفت فجأة عن الكلام بعد ان لمحت في نظراته الغضب الشديد، وتراجعت إلى الوراء بعد ان وجدته يتقدم منها وعيناه تقدحان شرراً.

ثم قال بثورة: «لا تحاولي مرة أخرى أن تشيري إلي كيف أعامل ابنتي، هذا وبالاضافة، هل تجدينها غير سعيدة؟»

تمتمت دافينا: «لا.»

«مهملة؟»

«لا.» قالت دافينا ذلك وقد لمست فعلاً كم بدت الطفلة نظيفة وكيف يعتني بها جيداً وتابعت تقول: «لكن هذا لا يعني... فلا يجدر بك أن تصرخ هكذا أمامها.»

«لقد تعودت على الصراخ، وتعتقد انها الطريقة الوحيدة في التصرف الجيد.»

فقالت دافينا ساخرة: «انه تصرف جدير بالثناء والفخر فعلاً!»

www.elromancia.com

لوى قسمات وجهه بقسوة، ثم تبدلت ملامحه عندما توجه نحو الطفلة وداعب خصلات شعرها قائلاً: «ماذا قلت يا دافينا؟»

«انني مضطرة للخروج.»

«دافينا، سأتغيب لخمس دقائق فقط!»

«حسناً، لكن لا أكثر من ذلك، فلا يمكنني أن أتأخر.»

قال ساخراً: «آه، صحيح لأجل محاضرتك حول الأعشاب...»

صححت قوله: «الحديث عن الأعشاب، فأنا لا أحاضر، فلا تصرخ في وجهي، انني أسدي اليك خدمة.»

سألها بلطف وبرودة: «هل أنت حقاً كذلك؟»

«نعم!»

التفت إلى ابنته وابتسم لها ابتسامة طيبة وحنونة لم تعهدها دافينا فيه وقال: «ما رأيك يا ايمي؟»

بدت ايمي للحظات قلقة تنتقل بنظراتها بين دافينا ووالدها إلى ان سألته: «هل ستعود حالاً؟» قالت ذلك منخفضة الرأس وكأنه سؤال اعتادت أن تردده دائماً، فشعرت دافينا بغصة في حلقها.

أكد جويل لها: «سأعود حالاً.»

ثم أضافت الطفلة وكأنها تريد أن تتأكد أكثر: «ألن يطول غيابك؟»

«لا.»

«فقط حتى نهاية هذا الشارع؟»

«نعم.»

«حسناً، لن تتأخر إذاً.»

«لا لن أتأخر.» ثم حول نظره إلى دافينا ولم تبد على ملامح وجهه أي علامات للغضب أو المكر وقال لها بلطف: «شكراً لك، سأعود في أسرع وقت ممكن.»

فألحت عليه دافينا وكأنها تحمله عرفاناً وجميلاً: «أرجو أن تكون صادقاً لأنني على عجلة من أمري.»

ضحك، ثم قبّل ايمي الصغيرة، ومنح دافينا ابتسامة ماكرة وأسرع خارجاً.

جلست دافينا إلى جانب ايمي وهي ترتجف من عوامل عديدة، ثم ابتسمت لها قائلة: «ما اسم هذه اللعبة؟»

«دمية.»

كادت أن تضحك من جواب ايمي، لكنها توقفت عن ذلك وسألتها: «هل ترغبين ببعض العصير؟»

مضت الخمس دقائق وتلتها العشر دقائق حتى العشرين دقيقة، فاضطرت دافينا أن تعد طعام الغداء لهما، ثم غسلا الأطباق معاً حيث وقفت ايمي على كرسي مسرورة تلهو بفقاقيع الصابون. فشعرت دافينا والفتاة الصغيرة إلى جانبها بشوق للزواج وانجاب الأطفال لتستقر نفسياً. انه أمر كانت دائماً تريده، وفكرت بألم يعصر قلبها، فكيف أضاعت من عمرها كل تلك السنوات هباء؟ لماذا لم تتمكن لغاية الآن من أن تلتقي بشريك حياتها؟

أنزلت الفتاة الصغيرة عن الكرسي بعطف غريزي وعادتا معاً إلى غرفة الجلوس. ثم جاءت بعلبة للأحذية لتصنع منها سريراً لدميتها، فأخذت تلهو بها ببراءة على أرض الغرفة. كانت دافينا تراقبها وتراقب حركاتها وتذكرت، لا بل سمحت للذكريات أن تتضارب في رأسها. كيف التقت بجويل

لأول مرة، وكيف هرب منها خطيبها بول قبل اسبوع من زفافهما، وكم حزنت في قلبها وتمزقت من الوحدة القاتلة والقهر، وكيف في النهاية دفعها بعض الأصدقاء للمشاركة في تلك الحفلة التي تعرفت فيها على جويل.

«ضميني اليك.»

أجفلت دافينا وانتبهت بأن ايمي تقف إلى جانبها تمد اليها ذراعيها الصغيرتين. فابتسمت لها بأسى وحزن، ثم حملتها وأجلستها في حضنها بعطف وضمتها إلى صدرها. انها ابنة جويل والتي كان ممكناً أن تكون ابنتها هي، فسألتها بحنان: «هل تريد دميتك أن تحتضن هي الأخرى؟»

«لا، دميتي تنام الآن.»

«حسناً.»

شعرت بدفء هذه الصغيرة وهي تلف ذراعيها حول عنقها، ثم وبعد ذلك وكأنها اطمأنت إلى جانب دافينا، تركتها وعادت إلى دميتها لتلهو بها تكلمها مقلدة والدها ووالدتها عندما يتكلمان معها.

وعادت دافينا تفكر بجويل، لقد عاد اليها الآن وعليها أن تفكر بالأمر وان تزن الأمور من كافة جوانبها كي لا تعيد التاريخ نفسه. انها لم تعد في الثانية والعشرين من عمرها، لم تعد ساذجة ولن تسمح لأحد أن يؤذي مشاعرها بعد الآن. فهي اليوم امرأة ناجحة في عملها الذي يشرفها وتفتخر به حتى لو لم تصبح وافرة الثراء منه، ولكنه يسدّ حاجاتها ومتطلباتها في هذه الحياة. وأكثر من ذلك، فانها تعيش عيشة ممتعة وراضية ومقتنعة بها. كما انها تسافر كثيراً

لتوزع كتبها التي تدور مواضيعها حول التداوي بواسطة الأعشاب. ولكنها الآن وبعد ان لمست دفء جسد ايمي الصغير، أدركت ان كل ما أنجزته الآن من أعمال مشرفة ما زال ناقصاً وينقصه أهم انجازات المرأة ألا وهو الأمومة التي تنشأ في غريزة أية فتاة، ولكن كيف يمكنها أن تسد مثل هذا الفراغ في حياتها؟ أما بالنسبة إلى جويل، فانها تشعر تجاهه بشعورين متناقضين تماماً، فهي لا تريده وترفضه، وفي الوقت نفسه تتذكر كلامه الذي كان يقطر عسلاً عندما كان يكلمها.

استفاقت من ذكرياتها على صوت وقع خطوات من الباحة الخارجية للبيت، فنظرت إلى ساعة يدها وقطبت حاجبيها غير موافقة على تصرف جويل.

تهلّل وجه ايمي، وقفزت على قدميها ثم ذهبت لتقف أمام الباب هاتفة بفرح: «أبي، أبي.»

فتح الباب بهدوء فشعرت دافينا بثورة جامحة تجتاحها.

فبادرها بالقول: «أعرف، أعرف. وآسف جداً. لكن هل سبق لك وحاولت الاتصال من هاتف للعموم هنا؟»

«نعم.»

نظر اليها مطولاً ثم قال مبتسماً باشمئزاز: «ولم تحصل معك أية مشاكل؟» ثم أسرع يحمل ايمي بين ذراعيه.

«لا.» انها لم تنطق بالحقيقة، ولكنها لا تريد أن تقول له ذلك.

نظر اليها من فوق رأس ابنته، كأنه يبعث اليها برسالة ما، ولكنها لم تفهم منها شيئاً.

ثم قالت دافينا بعصبية: «لقد تناولت معي طعام الغداء.»

أحنى برأسه راضياً.

«هل انتهيت أخيراً من مكالمتك الهاتفية؟»

«لا، لأنني أضطررت أن أذهب اليه بنفسي، اعتقاداً مني ان الأمر سيكون أسرع كذلك.»

«فهمت. وكيف كان الاجتماع بينكما؟»

«لم ينجح هذا الاجتماع بيننا.»

احتارت في أمرها وسألت: «لم ينجح؟»

أجابها جويل: «لا.» وقبّل رأس ابنته ثم أنزلها إلى الأرض، واسند بقامته إلى الحائط وأخذ ينظر إلى دافينا مفكراً بينما عادت ايمي لتلهو بدميتها، فأضاف بهدوء: «لم استطع ان أركز على شيء من كلامه.»

شعرت دافينا انه متوتر الأعصاب وقالت: «ولكن لماذا؟»

«أنت تعرفين لماذا.»

«لا، لا أعرف.»

تحرك قليلاً من مكانه وقال: «لأنه يريد ان يملي عليّ شروطه.»

«وهل لا يُسمح لأحد أن يملي شروطه على الطرف الآخر؟»

«لا، أنا ارسم الصورة كما أراها مناسبة وإلا لا ارسمها بتاتاً.»

«يا لك من متغطرس!»

سألها بلطف: «نعم، وأنت تعلمين ذلك، أليس كذلك؟» وبدأ يتقدم نحوها. لكنها نظرت اليه بتحد وكأنها تثنيه عن التقدم أكثر، فما كان منه إلا أن توقف مكانه ولكنها شعرت،

كما شعرت منذ أن التقته لأول مرة، بانجذاب اليه لم تشعر به مع أي رجل آخر.

بقي واقفاً أمامها ينظر إليها بثبات، فارتجفت وخشيت من اللحظة الآتية ثم قالت: «لا، لا تنظر إلي هكذا.»

«أريد أن نجدد صداقتنا.»

«لا، فأنا مخطوبة الآن.»

«تخلصي منه.»

«لا أريد أن أتخلص منه، لقد اخترته شريكاً لحياتي.»

تمتم بهدوء: «انك واهمة.»

اجابته: «هذا بالنسبة إليك.»

ابتسم بتهكم وسألها: «هل تخافين مني؟»

«لا، والآن علي أن أستعد لعملي.»

نظر في عينيها وقال: «انها ما زالت الساعة الثالثة، وهناك متسع من الوقت.»

ارتجفت وشعرت بالوهن لكنها بقيت على قرارها: «لا. أريد أن أستعد منذ الآن.»

www.elromancia.com

الفصل الثاني

شعرت دافينا بالضيق يطبق بانقباض في صدرها، وقد بقي جويل يحاول اقناعها لتتخلص من خطيبها المزعوم. قرأت في عينيه الالحاح والاصرار، ثم خيم عليهما الصمت وكأنما كل واحد منهما كان يستعيد في فكره الأيام الطيبة التي امضياها سوية.

قطع جويل بعد ذلك الصمت وقال: «في الأوقات اليائسة والحالكة، كنت اتذكرك واتساءل اين انت الآن، وهل سيكتب لي ان اراك مجدداً؟»

اعترضته دافينا قائلة: «لا. توقف.» ثم حولت نظرها إلى ايمي التي كانت تنظر اليهما بين الحين والآخر ببراءة وتابعت تقول: «ان ايمي تراقبنا وتنصت الينا.»

«لا، انها ليست كذلك.»

في الحقيقة، ان ايمي كانت ملتهية عنهما بدميتها ولا تفقه شيئاً مما يدور بينهما، فاردفت دافينا تقول: «هل تعني انها معتادة على مثل هذه الامور؟ يا ترى والدها يكلم دائماً امرأة مختلفة وغريبة عنها...؟»

«انك لست غريبة، فلا تكوني سخيفة.»

عادت وقالت له متوسلة هذه المرة: «ارجوك، علي ان احضر نفسي الآن.»

«هل انت حقاً مخطوبة؟»

«نعم.» كانت تكذب، فحول نظره إلى النافذة وقد بدا عليه

التفكير العميق، واحتارت في امرها، هل تفرح لأنها كذبت عليه وتمكنت من اقناعه بأنها مخطوبة، ام تكون قد جنت على قلبها وروحها معاً وفقدته إلى الأبد، لم تستطع البقاء اكثر في غرفة الجلوس وهو يقف امامها صامتاً وكأن صاعقة قد سقطت على رأسه فاخرسته. اسرعت نحو الباب وخرجت منه إلى الحمام مباشرة وقد شعرت بالغثيان، ثم احكمت اغلاق بابه، هرباً منه أو ربما هرباً من نفسها. نظرت إلى وجهها في المرآة، وهالها ما رأته فيه من شحوب.

ثم سمعت صوته من البعيد ينادي: «فينا؟»

تأوهت باعياء وألم: «ابتعد عني.»

«تريد ايمي ان تستعمل الحمام.»

فتحت الباب وافسحت لها بالدخول ثم عادت إلى غرفة الجلوس، وبعد ان انتهى جويل من مساعدة ابنته، لحق بها وقال معتذراً وبهدوء: «آسف جداً.»

طأطأت برأسها لأنها كانت عاجزة عن الكلام.

ثم قال: «سننتظرك ريثما تنتهين.»

عادت ودخلت الحمام وهي في حالة اضطراب شديد، وتساءلت لماذا تخشاه؟ لقد تمكنت من اقناعه بأنها مخطوبة وانتهى الأمر، ان تصرفها لهو في قمة الغباء، ولكن اذا كان حقاً لم يعد يعني لها شيئاً، لماذا تقفل على نفسها وتختبىء في هذا الحمام هرباً منه؟

انه لا يستطيع ان يقوم بشيء بغير ارادتها، لكن الذي تخشاه هو انها فعلاً تريده، ولم تنس يوماً تلك الأيام الجميلة التي كادت ان تنتهي بينهما بالزواج، لو انها لم تستخدمه كوسيلة للانتقام من خطيبها السابق الذي هجرها

من اجل فتاة أخرى. ولكنها عندما اتمت انتقامها من خطيبها بول، وجدت نفسها تميل إلى جويل الذي كان صادقاً ومخلصاً معها ووعدها بالزواج، فشعرت بالمذلة والخجل لأنها كذبت عليه واستخدمته، لذلك فهي لا تستحقه، فدفنت معاناتها في صدرها وابتعدت عنه دون ان يدري جويل لماذا فعلت ذلك. وقد تركته بحيرة ويأس يفتش عنها في كل مكان دون جدوى، بينما كانت هي في حالة لا تحسد عليها، تعيش العذاب وتأنيب الضمير الذي لم يبارحها لا ليلاً ولا نهاراً، والابتعاد عن انسان كان يقدرها ويحترمها وكاد ان يحقق لها حلم كل فتاة.

دفنت كل ذلك في صدرها وصبرت وارهقت روحها بالعمل المتواصل، ولكنها لم تستطع ان تزيل خيال جويل من رأسها، مع انها عرفت ومع مرور الأيام بأنه تعرف إلى أخرى وتزوج منها. وتساءلت ما الذي عاد به الآن؟ ولماذا؟ هل لأنها سخرت منه واستخدمته لفترة من الزمن ويريد الآن ان يسخر منها بالمقابل؟ ام الصدف وحدها هي التي عادت لتجمعهما من جديد؟ ثم تقاذفتها افكار أخرى، لتقول لها بأنها لم تعد طفلة وما يهمك من الذي جاء لأجله، طالما انت نفذت القرار بشأنه منذ سنوات طويلة.

شدت من عزيمتها وقررت ان تسرع في تحضير نفسها لعملها هذه الليلة، فارتدت ثوباً انيق يليق بالمناسبة وسرحت شعرها تسريحة عملية وبسيطة، ثم تناولت حقيبة يدها واخذت نفساً عميقاً قبل ان تتجه إلى غرفة الجلوس.

وجدته يجلس على الأرض يلاعب ابنته بحنو وطول بال، فتيقظت بدافينا عاطفة الأمومة ولم تستطع السيطرة عليها.

وعندما شعر بدخولها، أدار رأسه ناحيتها وابتسم لها ابتسامة غريبة لم تتعودها منه وقال ممازحاً: «لقد كانت هذه الدمية مشاغبة.»

قالت دافينا بيأس: «هل هذا صحيح؟»

اجابها جويل: «نعم، لذا ستخلد الآن إلى النوم بدون زجاجة الحليب.»

رددت ايمي كلام والدها كأنها تؤيده على ما يقول: «ستنام بدون زجاجة الحليب.»

حمل جويل ابنته، ثم وقف بها ولاعبها قليلاً، وبعد قليل انزلها إلى الأرض قائلاً لها: «اصبحت ثقيلة الوزن ايتها الصغيرة.»

«ثقيلة الوزن.» كررت ايمي قوله بابتسامة ماكرة، ثم نظرت إلى والدها بمحبة وشوق، رق لها قلب دافينا وكادت ان تذرف الدموع. فمن حق ايمي ان تنظر إلى والدها تلك النظرة المحببة، بينما لا يحق لدافينا ذلك، مع انها كانت تتمنى من صميم قلبها لو كان بامكانها ان تفعل.

سألها جويل: «اين ستقام تلك المحاضرة؟»

اجابت دافينا: «ماذا؟ آه، ليست ببعيدة عن هذا المكان، في الشارع المقابل لهذا، وهذا ما دعاني لأن استأجر هذا البيت.»

«اذاً سنمشي معك، كم محاضرة قمت بها لغاية الآن؟»

«ثلاثة لغاية الآن، وفي ثلاثة اماكن من اسبانيا، ليون، بيرغوس، ليدا، والرابعة هذه الليلة...»

«واين ستكون القادمة؟ هل ستعودين إلى وطنك؟»

«نعم.»

طأطأ برأسه ثم نظر اليها نظرة غريبة، وبينما انحنت ايمي لتلتقط دميتها قال لها بمكر: «جيد جداً، تبدو تصرفاتك طبيعية.»

قالت تدافع عن نفسها: «انني حقاً اتصرف طبيعياً، كما انني تغيرت كثيراً ولم اعد تلك الفتاة الحالمة التي عرفتها يوماً.»

اجابها بخبث ودهاء: «نعم، يمكنني ان أرى كم انك حقاً تغيرت، وبكل ما لهذه الكلمة من معنى.»

«شكراً لك.» وتقبلت منه ذلك بشيء من السخرية مما جعله يضحك وقد بدا عليه الابتهاج والارتياح، اكثر من ساعة دخوله إلى هذا البيت.

ثم سألته بتحفظ شديد: «اين تقيم؟»

اجابها بمرح وكأنه وجد شيئاً يلهي نفسه به: «في فندق غراند، واين غير ذلك؟»

اين غير ذلك الفندق العظيم بالفعل؟ خاصة انه كان يريد لنفسه دائماً الافضل والاجود. فعلقت بشيء من السخرية: «جميل جداً.»

«نحن نعتقد ذلك أيضاً، اليس كذلك يا ايمي؟»

ابتسمت ايمي دون ان تتفوه بكلمة واحدة.

ابتسم في وجه ابنته وتابع كلامه قائلاً: «كما وانه لديهم خدمة خاصة بالاطفال.»

اجابته دافينا: «حقاً؟ يا لها من خدمة مريحة وتناسبك أيضاً.»

لمّح لها قائلاً: «لكن هذه الخدمات لا يقدمونها سوى في المساء.»

حركت رأسها بطريقة تدل على انها فهمت ما قاله وان هذا الموضوع لا يثير اي اهتمام عندها، ثم فتحت الباب الخارجي وافسحت لهما الخروج لتحكم بعد ذلك اقفاله كي لا تتفاجأ مرة أخرى بوجوده داخل بيتها.

وعندما اصبحوا في الشارع سألها جويل: «كم تطول عادة مدة مثل هذه المحاضرات؟»

صححت كلامه قائلة: «سبق وقلت لك انه حديث، وسأتحدث في هذا الموضوع لساعة من الزمن، و...»

صحك بسخرية وقال: «باللغة الفرنسية؟ أو ربما باللغة الاسبانية؟ انني فعلاً متأثر بمؤهلاتك.»

انكرت قوله بغضب: «كلا. بلغتي، ولدي مترجمي الخاص، وبعد ذلك اجيب على الاسئلة التي قد يطرحها الحضور. واطلب منك ان تتوقف عن الضحك، فالأمر ليس كما تراه مضحكاً!»

قال ملطفاً حدتها: «بالطبع انه ليس كذلك، ليس مضحكاً على الاطلاق. كما انك سيدة ناجحة، ومحدثة، ومثقفة... ولا ترفعي صوتك امام ابنتي.»

«لا...؟ انت...» فتوقفت عن الكلام الذي ارادت ان تقوله وهي تنظر إليه نظرات ساخطة. وصلت إلى المبنى الذي ستقدم فيه محاضرتها، ودفعت بالباب دون ان تتلفظ بشيء. ثم قالت في نفسها: ان ذلك سيوقفه عند حدوده. واسرعت إلى مضيفيها الذين كانوا في انتظارها، ولكنها كانت تشعر بانزعاج شديد في داخلها قد لا يمكنها من القيام بالحديث الذي هي بصدده.

تحركت ببطء إلى داخل القاعة، واخذت نفساً عميقاً

لتهدىء من روعها، ثم صعدت إلى المنصة وابتسمت إلى الحضور، وبلحظات قليلة عادت إلى طبيعتها العملية، مبعدة جويل عن تفكيرها، واخذت تتحدث ببراعة وبساطة في موضوعها، انه الموضوع الحيوي الذي تقتنع به كل الاقتناع. شرحت كيف بدأت أولاً في ابحاثها هذه، برغبة شديدة منها في مساعدة وتخفيف التهاب المفاصل الذي تعاني منه والدتها، شرحت أيضاً كيف طالعت الكتب العديدة التي تبحث في هذا المجال حتى حفظتها جيداً، وجمعت معلومات عديدة، إلى ان قررت اخيراً ان تؤلف كتاباً حول هذا الموضوع. واعدت ايضاً كتاباً آخر لأنها لم تستطع حصر معلوماتها في كتاب واحد خاصة بعد ان اكتشفت الأنواع التي لا تحصى ولا تعد في الاعشاب المعالجة، ثم اردفت قائلة بأنها لم تأت إلى هذه البلاد لتتحدث فقط عن اكتشافاتها، بل أيضاً لترى نوعية الأعشاب التي تستعمل هنا وفيما لو كانت شبيهة بالتي اكتشفتها هي.

وعندما انتهت من كلامها، دعت الحضور إلى طرح اسئلتهم، لكنها لمحت شخصاً ما بطرف عينيها يتقدم ليأخذ له مكاناً، فابتسمت بأدب تنتظر ذلك المتأخر بدخول القاعة ليجلس اخيراً في مقعده، لكنها صدمت عندما تبينت ذلك الرجل الذي لم يكن سوى جويل.

فتلاشت ابتسامتها وصوبت نظرها إليه، ومن الطبيعي ان يتحول الحضور بانظارهم إلى حيث كانت تنظر هي، فاستدركت الأمر واشاحت بنظرها عنه بعدما وجدته يقف مجدداً ويسند ظهره إلى الحائط وقد حمل نسخة من كتابها بيده وعلامات الاتهام الكاذبة ترتسم على وجهه. تمالكت

اعصابها لتستمر في هذا الاجتماع، واجابت على الاسئلة التي طرحها الحضور، كما وانها سجلت في مفكرتها افكاراً جديدة لا تدركها.

لم تصدق كيف انها انتهت من ذلك الاجتماع، ولكنها نجحت كعادتها، وعندما انتهى الحضور من طرح اسئلتهم واجابت عليها بصبر، تركت المنصة ومشت في اتجاهه حيث كان يقف.

قالت له متهمة: «لقد فعلت ما فعلت عن سابق تصور وتصميم.»

رفع حاجبيه بدهشة وقال: «جئت لاستمع اليك وانت تتحدثين.»

«لا، لم تكن هذه نيتك، بل جئت فقط لتجعلني ابدو غبية امامك!»

لوى فمه اشمئزازاً وقال: «لا يمكن لأي كان ان يجعلك تبدين غبية، الا اذا اردت انت ذلك. واصارحك القول، انك لم تكوني كذلك... لغاية الآن.» اضاف كلماته الاخيرة بسخرية، ثم امسك بيدها وخرج بها من القاعة.

«ما رأيك لو تأتي معي إلى الفندق لنرشف القهوة معاً؟»

«ماذا تقول؟» سألته ذلك بعنف وقد سحبت يدها من يده.

تابع يقول ببرود متجاهلاً ما بدر منها: «كما انه، ينبغي علي ان القي نظرة على ايمي.»

«اذاً، اذهب بنفسك!»

عاد يمسك بيدها عندما حاولت الابتعاد عنه وقال: «ألا ترين انه من الأفضل لنا ان نعيد النظر ونتحدث بالذي كان بيننا في يوم من الأيام؟»

www.elromancia.com

صرخت بذهول: «تقول من الأفضل؟ الأفضل لمن فينا؟ لا. لا اعتقد انه من الأفضل! لقد قررت موقفي منذ زمن طويل.»

«حقاً؟»

«نعم... فما عليك سوى ان تتبع أيضاً القرار الذي قررته انا!»

«آه، لكنني توصلت فعلاً.»

«اذاً، ما بالك تلاحقني من مكان إلى آخر؟ الأن غرورك واعتدادك بنفسك يقولان لك بأنني لن...» وتوقفت فجأة عن الذي كادت ان تقوله.

لكنه تابع بجرأة ما توقفت عنده: «لن ترفضينني؟ وقد تستخدميني مرة أخرى للانتقام؟»

اجابت بلهجة متوترة: «لا، لقد اسأت فهم الأمور! فأنا لم...»

«لم تقصدي؟»

«نعم! لا! آه، توقف عن ذلك! توقف عن التلاعب بمشاعري!»

اجابها ببرود وهدوء ماكر: «آه، لم ادرك بأنني افعل ذلك، وبما اننا نسيء فهم بعضنا، اشعر انه من الأفضل لنا ان نناقش هذا الأمر، والذي يرى تصرفاتك هذه، يعتقد بأنني الرجل الوحيد الذي عرفته في حياتك، بينما ذلك منافٍ للحقيقة.»

«نعم منافٍ للحقيقة!» وافقته مشمئزة.

«لذا فانك ستأتين معي سواء بالقبول أو بالرفض والمقاومة منك.»

قالت بغضب: «لا، لن اذهب معك، ولا يمكنك ان تجبرني على ذلك!»

فسألها بسخرية: «لا يمكنني أو لن يمكنني؟» وعندما لم تستطع الاجابة عن سؤاله نظرت إليه بخوف وضعف، فابتسم وتابع يقول: «بالطريقتين يمكنني ان اجبرك على ذلك، وكيف ستبدو تلك المشهورة دافينا رينولدز وهي تدخل الفندق الكبير عنوة وصارخة بأعلى صوتها؟»

«اكرهك!»

وافقها بهدوء: «نعم، اعرف ذلك.»

اخذت تنظر إليه بدهشة، ثم حاولت ان تقول أي شيء، ولكنها تراجعت، فما عساها ان تقول في مثل هذه الحالة الغريبة والشاذة غير الذي قالته قبلاً؟ وهل من نتيجة تذكر لو انها قالت شيئاً؟ ولماذا لا يكرهها هو طالما يعرف بأنها تكرهه؟ ولكن هل انه حقاً يكرهها؟

قال لها مشجعاً: «هيا بنا.»

فقالت بعناد: «لماذا؟ لماذا تصر كل هذا الاصرار؟»

سألها بابتسامة ماكرة: «هل برأيك لأننا غريبان وفي أرض غريبة؟ أم لأننا صديقان قديمان؟ أو هل تتوهمين بأنه يمكنني ان انسى تلك الصداقة بسهولة؟»

ثم مشى بها رغماً عنها إلى ان وصلا إلى مدخل الفندق الذي يقيم فيه، ففتح لهما الحاجب الباب الزجاجي باحترام، وتوجه بها إلى المطعم، ثم اجلسها إلى احدى الطاولات وقال: أستأذنك للحظات قليلة، لأنني اريد ان اطمئن على ايمي... هل ستنتظرينني؟»

ترددت قليلاً قبل ان تخفض برأسها موافقة.

www.elromancia.com

«اطلبي ما شئت من النادل، فأنا لن اتأخر.»

طلبت فنجاناً من القهوة، وشعرت ببعض الارتياح واخذت تنظر حواليها باعجاب لفخامة هذا الفندق الذي يعتبر من افخم فنادق تلك المدينة، والذي أيضاً بامكان جويل ان يتحمل مصاريفه بسهولة. وتذكرت ما قاله لها: انه من الأفضل لنا ان نتكلم، وقد يكون على حق في ذلك، لذا، فانها ستتحدث معه كي لا يعتقد بأن هناك شيئاً تريد ان تخفيه عنه.

وتابعت تلهي نفسها بالنظر من حولها مرة أخرى لتهدىء من انفعالاتها ومن افكارها المتضاربة. لم يكن رواد المطعم كثر، لكنهم كان يبدو عليهم الثراء والعز من اختيارهم لملابسهم الباهظة الثمن، خاصة تلك المرأة القريبة لطاولتها، فقد كانت الجواهر الثمينة تزين عنقها ويديها وتلتف بفراء ثمين لا تحتاج إليه في مثل هذه الليلة الدافئة. فقالت دافينا لنفسها لو انها تمتلك مثل هذا الفراء الثمين لفعلت مثلها ولما اكترثت للجو الدافىء.

كان جميع رواد المطعم يرتدون ربطة عنق ما عدا جويل، وتعرف من جهتها، ان ليس من احد يستطيع اجباره على ذلك، انه من النوع الذي لا يمكن لأحد ان يملي عليه ما يفعله وما لا يفعله.

وعندما عاد واصبح إلى جانبها سألته بصوت مرتجف: «هل ايمي بخير؟»

اجاب بإيماءة من رأسه ولم يلاحظ الارتجاف في صوتها، بل كان يطلب من النادل ما يريده. ابتسمت دافينا ابتسامة واهية وقد عادت تنظر إلى الفراء والجواهر التي

ترتديها تلك المرأة، متسائلة في نفسها، ما الذي يميزها اكثر عني أو ما الذي تملكه من جمال لا املكه؟

«لماذا تبتسمين؟» سألها جويل بلطف بينما كان النادل يرتب غطاء الطاولة ليضع امامه كوباً من عصير الليمون.

اجابته بسرعة مستدركة: «آه، لا شيء يذكر.»

«ربما للأيام الماضية؟ والذكريات؟»

«لا، للحاضر.»

«هل لأن الحاضر اكثر اماناً؟»

«ربما.»

شرب قليلاً من العصير ثم اخذ يقلب جزافاً صفحات الكتاب الذي ألّفته.

فقالت له: «آمل ان تكون قد دفعت ثمنه.»

«لقد فعلت.» ثم بدأ يقرأ: «ألو فيرا، انها نبتة كثيرة العصارة وقيّمة، يمكنك ان تزرعها في حديقة بيتك، أو حتى اكثر من ذلك يمكنك ان تزرعها في حقل واسع وتستخدم عصيرها كدواء شافٍ للحروق وعقصات الحشرات.»

اضافت دافينا: «انها مفيدة كذلك للالتهابات الجلدية وحروق الشمس، ولترطيب البشرة الجافة.»

اغلق الكتاب ووضعه امامه على الطاولة ونظر اليها مبتسماً بسخرية وقال: «لكن بشرتي ليست جافة، الا ترين ذلك؟»

«من اين لي ان اعرف، اعني...»

بدا عليه الانشراح وقال: «اعرف.»

«اعني...»

قاطعها بصوت منخفض: «قلت لك اعرف. هل لديك نبتة منها في المطبخ؟»

www.elromancia.com

«نعم.»

سألها مستفسراً: «هل فقط نأخذ ورقة منها ونحفها على الجلد؟»

اجابت: «لا، اقطعها لتستخرج منها العصير ثم استعملها.»

«وهل تحملين كل هذه المعلومات في رأسك؟»

«اكثرها.»

بدا معجباً بمؤهلاتها ثم قال: «أرى بأنني لا اعرف الكثير عنك، اليس كذلك؟»

هزت برأسها نافية.

«اذاً، اخبريني.»

نظرت إليه متعجبة وقالت: «لكن لماذا؟»

«تعرفين لماذا.»

«لا يا جويل، لا اعرف، هل لأن ذلك يمنحك عذراً لملاحقتي في هذا البلد؟ أو لأن المطاردة بالنسبة اليك امر طبيعي كالتنفس للانسان؟»

«هل هذا ما تعتقدينه؟»

«هذا ما افهمه.»

«عليك ان لا تصدقي كل ما ينشر في الصحف. اتعلمين؟ تبدين امرأة قديرة ومثقفة، أو بمعنى آخر، امرأة تعرف تماماً ما تفعله وتقوم به.»

سألته ببرود: «حقاً؟»

ابتسم ابتسامته الساخرة وتابع يقول وكأنه فهم السبب الذي دفعها إلى ارتداء مثل هذا الثوب الأنيق والعملي: «الملابس العملية، اليس هذا ما يسمونه بها؟ وتتناسب مع

شروطك المهنية، بينما أرى في الأمر مراوغة واحتيالاً، الا توافقيني يا دافينا؟»

«هل هذا ما تعتقده؟»

عاد يشرب قليلاً من عصير الليمون ثم قال: «اخبريني لماذا اخترت هذا النوع من العلاج بواسطة النبات، لقد فاتني ان استمع إلى حديثك من البداية.»

قالت بسخرية: «أمر مؤسف، فقد كنت استفدت منه بشيء.»

«لا تكوني لاذعة بكلامك، هيا اخبريني.»

قالت بإيجاز: «اصيبت والدتي بالتهاب في المفاصل.» وفكرت في الواقع، وذلك عندما عادت مرة إلى بيت والدتها، وجدتها تعاني اشد العذاب والألم وقد تمكن منها هذا المرض ولم تعد تقوى على التحرك، فشعرت بالذنب لأنها لم تعرف بذلك منذ بداية هذا المرض معها، عندها وضعت كل طاقاتها وامكانياتها لايجاد شيء قد يساعد والدتها ويخفف عنها الألم. نظرت إلى جويل وقد وصلت بافكارها إلى هذا الحد، لتجده ينظر اليها بجلد، فتنهدت وقالت: «لقد تمكنت الأدوية الطبية من تخفيف الألم دون ان تتمكن من القضاء عليه نهائياً، حتى ان الأطباء لم يتوصلوا إلى معرفة نوع هذا المرض لكثرة مشتقاته مما دعاني إلى قراءة الكتب الكثيرة التي تعالج هذا الداء، ثم توجهت أيضاً إلى قراءة كل الكتب التي تتعلق بالأعشاب والتي تدخل في معظم الأدوية.»

«وهل وجدت شيئاً يفيدك؟»

«نعم، الزنجبيل.»

سألها بدهشة: «الزنجبيل؟»

www.elromancia.com

ضحكت قليلاً وأومأت برأسها بالإيجاب ثم قالت: «نعم، ويمكن شراؤه من المتاجر الكبيرة. انها نبتة فريدة من نوعها، تطحن وتغلى في الماء كالشاي تماماً وقد ساعدت في تخفيف التهاب المفاصل لدى والدتي.»

«وهل شفيت منه؟»

«لا، لكنها خففت آلامها كثيراً وساعدتها على التحرك بسهولة، وكان البلسم الشافي لمعاناتها...»

فسألها برقة: «وكيف حال والدتك الآن؟»

«لا بأس بها، لقد انتقلت مع ابي إلى فلوريدا، لأن الطقس البارد والرطب في بريطانيا لم يتوافقا مع حالتها، وهذا ما دعاهما إلى الانتقال. ووالدي الآن يقوم بابحاث حول المفصليات...»

قاطعها مبتسماً: «المفصليات؟»

«انها نوع من انواع الحشرات، وهو سعيد الآن بكل ما اكتشفه من جديد، وقد كتب كتباً عديدة حولها مما مكنته من تحمل مصاريف اقامتهما في فلوريدا.»

«عائلة ادبية.»

«نعم.»

«اننا نلف وندور حول الموضوع الرئيسي الذي جئنا من اجله.»

اجابته بلهجة متوترة: «انه موضوع رئيسي بالنسبة اليك، لا بالنسبة الي.»

«كاذبة. الا تودين ان تعرفي لماذا لم اعاود الاتصال بك؟»

«اعرف لماذا لم تعاود الاتصال بي، لأنك قررت الزواج من واحدة أخرى.»

«لقد كنت نبيلاً معك.»

سألته بانفعال: «نبيلاً؟»

نظر اليها متفحصاً قبل ان يقول: «نعم. وهل تريني عكس ذلك؟»

همست: «لا اعرف.»

«لا، وكيف يمكنك ذلك؟» ثم تغير مزاجه وتابع يتكلم بهدوء بينما كان يحدق بالكوب بين يديه: «لقد كنت نبيلاً معك بعد ان فكرت وحللت اسباب تصرفك...»

«فكرت وحللت؟»

اجابت بهدوء: «نعم، لقد ادركت السبب الذي دعاك إلى مثل هذا التصرف، لكن لماذا؟ كان بامكانك مصارحتي بالأمر.»

انزعجت من الحديث الذي كانت تخشى ان تخوضه في يوم من الأيام وقالت بنفور: «هذا ليس...»

اكمل ما توقفت عنده: «من شأني... معك حق، هذا ليس من شأني.» ثم بدا مفكراً مكفهر الوجه كأن شيئاً ما يعذبه وتابع يقول: «احياناً اقوم بتصرفات غير حميدة واقول اشياء اندم عليها في النهاية.»

هتفت كمن اصيب بصدمة: «لا!»

ابتسم ابتسامة واهية وقال: «انا لا اريد ان اكون كذلك، انما الناس تدفعني وتتهامس علي عندما تجدني في الحفلات قائلة: كيف سيتصرف هذه الليلة؟ هل سيحطم الاشياء؟»

«لا!»

وافقها بلطف: «معك حق، لكن ولأنني سببت وساهمت

www.elromancia.com

ذات مرة بحادثة في احدى الحفلات، نلت سمعة سيئة. ووجدت بعد ذلك كأنما الناس تريدني فعلاً ان اكون سيئاً وان اثير الشغب... آه، انك لا تدرين بالاشياء الفظيعة التي اتهمت بها.»

«بانك تلاحق النساء؟»

اجاب بانزعاج: «نعم، هذه واحدة من الاشياء التي لا تحصى ولا تعد.»

«وهذا غير صحيح؟»

«طبعاً، فطبيعة عملي لا تسمح لي بذلك.»

انتبه إلى نظراتها المهتمة وابتسم لها بعذوبة وتابع يقول: «حتى انت بالذات استخدمتني وعاقبتني لأجل خيانة خطيبك بول لك.»

«لم اقصدك انت بالذات...»

«اعرف، لأن الصدف جعلتني اقف امامك هناك.»

تنهدت ثم قالت: «نعم، كنت اريد ان ازيل الألم، ان الوم وأؤذي احداً، لأهون على نفسي...»

قال بتهكم: «نعم، لتهوني على نفسك، وكنت الرجل المعروف والشهير الذي يتيح لبول ان يسمع اخبارك بواسطته.»

«نعم، آه لا يا جويل، لا اعرف، ولكن تأكد انني تصرفت كذلك دون قصد مني.» والحق يقال انها وقتها لم تفكر بمن يكون أو بمدى شهرته، انما فقط وجدته فرصة ذهبية وسانحة لتنتقم به من بول، ثم قالت: «وماذا لو لم تلتقي بي ليلة البارحة؟»

اجابها بهدوء: «ولكنني التقيتك فلطالما بحثت عنك.»

تجاهلت ما قاله اخيراً ووجدت صعوبة وهي تطرح عليه هذا السؤال: «الأنه كان بيننا حديثاً لم نتمه؟»

«ربما، وربما لأنك أيضاً امرأة جميلة يصعب على المرء نسيانها بسهولة.»

لم يقل ذلك باعجاب، لكن من باب المجاملة فقط.

ثم نظر اليها مطولاً وقال: «هل استمتعت بنوم هادىء ليلة البارحة؟»

اشاحت بنظرها عنه ورفضت الاجابة عن سؤاله.

تابع كلامه قائلاً: «هل كانت سيئة كليلتي؟ فأنا لم استطع النوم... لقد تذكرت كل لحظة سابقة امضيناها سوية، خاصة عندما التقيتك لأول مرة وانت تدخلين إلى تلك الحفلة.»

ارتجفت دافينا كأنها ترفض ان تستعيد معه ذكرياتهما معاً، ثم نهضت من مكانها قائلة: «لكن المياه لن تعود إلى مجاريها يا جويل.»

اسرعت في ارتشاف قهوتها، وتراجعت بالكرسي إلى الخلف ثم وقفت تستعد للخروج.

قال لها: «سأرافقك في طريق العودة.»

«لا، فالمسافة ليست بعيدة، على اية حال، فايمي قد تستفيق من نومها.»

اسرعت تخرج من المطعم وإلى ردهة الفندق ثم إلى الباب حيث ابتسمت مكرهة إلى الحاجب الذي فتح لها الباب باحترام. لحق بها جويل وسمعته يهمس بشيء للحاجب قبل ان يسرع إلى جانبها ليمسك بيدها كما كان يمسك بها في يوم من الأيام وقال بلطف: «هل تذكرين؟»

طأطأت برأسها بذهول وحاولت ان تنزع يدها من يده،

www.elromancia.com

بينما اخذت تستعيد بذاكرتها كيف بدأ كل ذلك.

تمتم جويل: «غرفة تعبق بدخان التبغ، الجميع يستمتعون بأوقات سعيدة، الا انت وانا، كنا نقف إلى الحائط في اتجاهين مختلفين من الغرفة...»

ومن وقت لآخر، كان الساهرون يرفعون نظرهم اليها ومن ثم إليه. فاضطر بعد ذلك لأن يخرج من الغرفة ولحقت هي به، ولكنه لم يندهش عندما وجدها وراءه، فابتسم لها وامسك بيدها. اضطربت دافينا وقد اعادها بالذكرى إلى بداية لقائهما، وحاولت ان تبتعد عنه، ولكنه اصر على ان يرافقها إلى البيت.

ثم سألها: «يدك باردة، هل تشعرين بالبرد؟»

همست وكأنها لا تريد ان تتذكر: «فقط في الأسابيع الأولى من العام الجديد، حيث اشعر بالبرد الشديد خاصة في ليلة من ليالي كانون الثاني (يناير).»

«نعم، الليلة التي كنت ستبدئين فيها شهر العسل، واليوم الذي كنت ستتزوجين فيه.»

قالت لا شعورياً: «نعم.» وتساءلت هل اخبرته هي بنفسها هذه المعلومة بالذات؟ انها لا تذكر، لكن كل ما تذكره انها كانت في حالة غضب والم شديدين، وعندها رغبة قوية للانتقام من بول. وتذكرت انها شاهدت في تلك الليلة التي رافقها بها جويل لأول مرة، دائرة من الغيوم تحيط بالقمر حيث وقفا إلى شجرة قرب نهر في هامير سميث ونظراتهما لا تفارقان تدفق مياه النهر. كانت حينها افكارها تتجه إلى بول والانتقام يملأ قلبها. وودت لو انه يعرف هذه الساعة بأنها التقت برجل آخر افضل منه يعاملها باحترام وتقدير.

قطع جويل الصمت ليقول: «اذكر اننا مشينا ليلتها سيراً على الاقدام اربعة اميال، لنتجول في الشوارع الساكنة وكأننا الشخصان الوحيدان في هذا العالم... وامضينا بعد ذلك فترة سعيدة من الزمن عاهدتك بها على ان اتزوجك واوفر لك اياماً هنيئة، لكنني فوجئت بك تتصلين بي ذات صباح لتطلبي مني ان ابتعد عنك وانك كنت تستخدمينني كبديل.»

«نعم، لأنني ادركت ما فعلته تجاهك، وبأنك قد تظن بي فتاة رخيصة.» توقفت عن المسير لتنظر إليه، انها مازالت تشعر بالخجل من تصرفها، ليس فقط لأنها استخدمته، بل لأنها تجرأت وباحت له بذلك وبوقاحة.

سألها فجأة: «متى ستغادرين هذه البلاد؟»

تفاجأت لسؤاله وقد نشلها من ذكرياتها التي مازالت صورة حية في رأسها، وارادت ان تعتذر منه لتريح ضميرها، لكنها ادركت انه قد فات الآوان على ذلك. واجابته عن سؤاله قائلة: «آه، في صباح اليوم التالي.» ثم اخذت تبحث في وجهه عن علامات تدل على تفهمه للأمر، لكنها وجدته خالٍ من اي تعبير يريحها.

فسألها: «لنفرض انني سأسألك عن عنوان بيتك، فهل ستمنحيني اياه؟»

قالت باصرار: «لا.»

«هل هذا الوداع بيننا اذاً؟»

اجابت بلطف: «نعم.»

وعندما حاولت الابتعاد عنه، امسك يدها بغضب وقال: «ما اسمه؟»

ذهلت وقالت: «ماذا؟»

«خطيبك؟»

اسرعت تقول اول اسم خطر على بالها: «مايكل.»

«هل هو بديل آخر؟»

دهشت للحظة قبل ان تدرك ماذا يقصد بقوله ذلك، ثم قالت: «لا.»

«اذاً اتمنى لك ان تنالي ما تستحقينه.» ثم افلت يدها ليبتعد عنها بسرعة، فأخذت تراقبه وصدى وقع خطواته تتردد بعنف في اذنيها. شعرت بضعف شديد واسرعت تدفع باب مدخل المبنى، ثم صعدت إلى شقتها وفتحت بابها متسائلة بحيرة، هل كان يقصد خيراً بالذي تستحقه ام شراً؟ هل كان يسخر منها؟ أو يتلاعب بعواطفها؟ وهل الأشياء التي قالها واشار اليها كانت كذبة؟ هل كرامته جرحت، وسينعكس ذلك عقاباً لها؟

الفصل الثالث

لم يكن النوم سهلاً عليها لليلة الثانية، فأخذت تتقلب من جنب إلى جنب بضع ساعات إلى ان انهكها التعب واستسلمت إلى نوم ملؤه الكوابيس المخيفة، وأنها كانت تهيم على وجهها في غابة موحشة تعوي فيها الذئاب والحيوانات الشرسة، وعندما تراءى لها جويل من البعيد، استنجدت به، ولكنه أخذ يضحك عالياً وترددت أصداء ضحكته في الغابة.

وعندما استيقظت من نومها في صباح اليوم التالي، وجدت بأنها تأخرت عن الميعاد، وبأن عزمها على السفر باكراً بات مستحيلاً.

تناولت قليلاً من الطعام، وحزمت حقائبها ووضعتها في سيارتها، ثم أودعت مفتاح الشقة في صندوق بريد المبنى الذي تنزل فيه، وكانت عندئذ قد اصبحت الساعة الحادية عشرة. استقلت سيارتها وانطلقت بها، لتكتشف بعد ذلك ان ممر انفاليرا باس مقفلاً لبعض الوقت، بسبب ازدحام السيارات الكثيف في تلك الطريق الضيقة. أرادت أن تبكي وتندب سوء حظها من القدر الذي يعاندها، فأوقفت سيارتها إلى جانب الطريق وأحكمت اقفالها، مقررة أن تتجول في هذه البلدة الصغيرة، عساها تخفف من آلامها وعذابها.

انضمت إلى عدد كبير من الناس الذين قرروا أن يفعلوا مثلها، فابتهج اصحاب المتاجر لذلك وقد طبق عليهم المثل المعروف، مصائب قوم عند قوم فوائد، لأن الناس أخذوا

يلهون أنفسهم بشراء أشياء لم يكونوا في حاجة إليها، فتساءلت دافينا في نفسها، هل يا ترى ازدحام السير خطة مدبرة من أصحاب المتاجر أنفسهم؟ وبعد مضي بعض الوقت، خاصة بعد ان بيعت أصناف عديدة للناس، فتحت الطريق، وظهرت الفرحة على وجوه الجميع.

كان هناك سقالات على العديد من الأبنية، ربما أراد أصحابها الاستعداد لفصل الصيف، فأخذوا يرممون ما أفسده فصل الشتاء من تساقط الثلوج، وعندما وقفت قرب جماعة من الناس يتباحثون بما هو أفضل لهم، العودة إلى اسبانيا أم مواصلة السير في هذه الطريق، رأت جويل فجأة. أخذت تحدق فيه مذهولة وهو يمسك بيد ايمي. قررت أن تتجاهله وتبتعد عنه، فهي ما زالت تشعر بوخز الضمير لأنها خدعته واستعملته وسيلة لتنتقم بها من بول الذي جرح مشاعرها وابتعد عنها قبل اسبوع من موعد زفافهما.

أرادت أن تتحاشاه، فمشت تحت احدى السقالات لتعود من حيث أتت، فسمعت صراخ أحد العمال من فوقها، ولكنها لم تفكر بأنه موجه اليها لانشغال تفكيرها بجويل، وانتشلتها من أفكارها تلك، يد قوية وسحبتها بعيداً عن السقالة.

«هاي...» بدأت تصرخ وتوقفت فجأة بخوف شديد عندما انهمرت الحجارة بكثرة فوق الرصيف مخلفة أصواتاً مرعبة في المكان الذي كانت فيه بالتحديد.

وسمعت صوت جويل يقول لها مؤنباً بحدة: «ألا تدركين انه من الخطورة أن تمشي تحت السقالات بينما العمال يعملون فوقها؟»

حدقت به بعينين مندهشتين، ولم تستطع أن تجيبه بكلمة واحدة، ولكنها لاحظت بعد ذلك مرهماً أصفر اللون يغطي قسماً من جبينه، فبادرته حالاً بالسؤال بصوت مرتجف: «أهذا ما أصابك؟»

«ماذا؟»

فأشارت بيدها إلى الجرح فوق جبينه.

فقال بنفاد صبر: «لا.»

«إذاً، وكيف أصبت بهذا الجرح؟»

أجابها باختصار: «اصطدمت بأحد الأبواب الزجاجية. ألا تدرين يا دافينا بأنك كدت تقتلين نفسك؟»

«نعم. شكراً لك.»

تفوه بشي لم تسمعه، ثم سحبها من يدها إلى أقرب مطعم، أجلسها على كرسي ثم حمل ايمي ليجلسها إلى جانبها، وتوجه بعد ذلك ليطلب ما يريده.

ابتسمت للفتاة الصغيرة التي كانت تنظر إليها بعينين واسعتين، ثم حولت نظرها إلى جويل. لم يكن مضطراً إلى حشر نفسه بين الجمع الغفير، لأنهم تفرقوا من تلقاء أنفسهم مفسحين له الوصول إلى حيث سيسجل طلباته. لم يقف كغيره ينتظر ليحين دوره، بل نادى على النادل يسترعي انتباهه بتعالٍ وكبرياء، فلفت انتباه النادل بسرعة، ورأت كيف ان الناس من حوله أداروا برؤوسهم لينظروا إليه، وكأنه شخصية على جانب كبير من الأهمية. انه حقاً كذلك فلا يمكن لأحد أن يفكر بغير ذلك، فكرت دافينا بمرارة وألم. وتذكرت بعد ذلك بأنه لولاه لكان قضي عليها حتماً، فضغطت بأصابع يدها على حافة الطاولة وقد هالها

المصير الذي كانت ستنتهي اليه، وحاولت جهدها أن تصرف تفكيرها عما حصل، فركزت نظراتها على جويل الذي عاد والنادل يتبعه حاملاً صينية القهوة بين يديه.

«اشربي.» قال لها بلهجة آمرة ودفع اليها بكوب صغير من ماء الزهر ليهدىء من روعها.

«لا أريد...»

«اشربي!»

اطاعته دافينا وشربت ما في الكوب وهي تنظر إليه، ثم مسحت عينيها من الدموع التي ترقرقت فيهما ووضعت الكوب على الطاولة، ثم مدت يدها لتتناول فنجان القهوة، قائلة: «لا داعي لأن تصرخ في وجهي.»

«انك بحاجة لذلك!» وأخذ يرشف من فنجان القهوة وقد بدا على وجهه التفكير العميق، ثم قال: «انك امرأة ناضجة ولست غبية، ألم تسمعي نداءات العامل من الأعلى؟»

أجابت بتردد: «لا، أ... نعم.» وأبعدت شعرها عن وجهها بيد مرتجفة وكأنها لا تصدق بعد بأنها نجت من الموت، وتابعت تقول: «انني بخير الآن.» وعندما لم يجب، حولت نظرها إلى الناس من حولها. ولكنها شعرت بأنه لم يحول نظراته عنها، فأخفضت نظرها إلى الأرض، وسألته دون أن ترفع نظرها إليه: «هل آذيت كتفك؟»

أجابها باختصار: «لقد أصبت فيه باصابة بالغة.»

فبادرته بانزعاج: «هل تعني الآن؟ إذاً عليك بالذهاب إلى...»

قاطعها بفظاظة: «قبل الآن.»

قطبت حاجبيها باهتمام وقالت متسائلة: «قبل الآن؟»

«نعم.» قال ذلك متنهداً وقد نفد صبره وتابع يرشف

القهوة، فشعرت دافينا بحاجة ملحة إلى ذرف الدموع، فرفعت نظرها إليه وسألته مشفقة: «لكن كيف؟»

أجابت ايمي وكأنما السؤال موجه اليها: «بالباب.»

حولت نظرها إلى الفتاة الصغيرة التي كانت تنظر اليها نظرات اعجاب تمتزج بنظرات من الخوف والقلق وسألتها بلطف: «بالباب؟»

فأجابت الصغيرة: «الرجل فعل ذلك.»

عادت تنظر إلى جويل الذي بدا متألماً وقال شارحاً: «أحد الطائشين المتهورين ترك الباب الزجاجي للفندق يطبق على سيدة عجوز، فأسرعت لأبعده عنها ولكنني أصبت اصابة بالغة في ذراعي. هل اقتنعت الآن؟»

سألته وقد أبدت اهتماماً لهذا الأمر: «وأين كان الحاجب؟»

«من أين لي أن أعرف؟»

«وماذا عن الجرح في وجهك؟»

«النسر.»

سألته بذهول شديد: «النسر؟»

تدخلت هنا ايمي لتقول: «انه كبير.»

تصورت دافينا بتخوف النسر الكبير الذي هاجم جويل، ثم ابتسمت مستدركة وأبعدت هذه الصورة عن مخيلتها. وكررت قائلة: «النسر؟» ثم تذكرت منحوتة النسر عند مدخل الفندق وأومأت برأسها دلالة على انها فهمت ما قد حصل، وقالت: «أفقدك الباب الزجاجي توازنك فصدمت وجهك بالمنحوتة.» طأطأ برأسه موافقاً على كلامها وتابعت تقول: «هل ذهبت إلى المستشفى؟»

www.elromancia.com

فأشار برأسه بالايجاب دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

ظهر الاهتمام على وجهها وسألته بقلق: «ولكن، ألم يضمدوا لك كتفك؟»

فردت ايمي قائلة: «لقد نزعها.»

«أجل نزعتها.» تمتم جويل لابنته وهو يغمز لها بعينه، فانطلقت الصغيرة ضاحكة.

حاولت دافينا ان تقول: «لكن يا جويل...»

فقاطعها قائلاً: «لا تثرثري، فالجرح بحالة جيدة.»

«لا أجده كما تقول!»

عادت تتدخل ايمي: «سيتحسن قريباً.» فالتفت جويل وابتسم لها. ثم كرر قولها: «سيتحسن قريباً.»

وتابعت ايمي قائلة وقد لاحظت القلق على وجه دافينا: «لا تبكي.»

أجابتها دافينا: «لا، لن أبكي.»

فنظر جويل اليها بدهشة وقال: «لماذا تغيّر لون وجهك؟»

استنكرت قوله بحنق: «لم يتغير لون وجهي. ولكن ماذا قال الطبيب؟»

أجابها بجفاف: «بأن الحظ كان حليفي.»

«ويجب أن تبقي الضمادة على كتفك؟»

فقال يتأفف: «اسمعي، أنا لا أريد أن أمشي بين الناس بربطة مدلاة من كتفي.»

«قد لا تقوى على استعمال يدك بذلك، فلا تتصرف بعدم المسؤولية! فلو لم تكن بحاجة اليها، لما كانوا وضعوها لك!»

تجاهل كلامها وقال مغيراً الحديث: «هيا انتهي من رشف القهوة.»

باستهجان بسيط لما يحدث أمامها، نفذت ما طلبه منها، ثم قالت: «اعتقد انك تأمل أن تشفى من ذلك عندما تصبح جاهزاً لمغادرة هذا المكان لتتمكن من قيادة سيارتك، الا إذا كان لديك سائق خاص؟»

«ليس لدي أي سائق، كما وانني سأغادر اليوم.»

«لا تكن سخيفاً! لا يمكنك القيادة وأنت مصاب بذراعك... آه، لا.» ثم استدركت فجأة وتابعت تقول: «لن اصطحبك بسيارتي إلى خارج اندورا.»

«هل طلبت منك ذلك؟»

«لا، انما ظهر عليك ذلك دون أن تتفوه به!»

ابتسم ابتسامة لم تكن أبداً ودودة وقال: «هيا الآن لنتناول طعام الغداء في مكان آخر.» ثم ترك بعض النقود للنادل على الطاولة ووقف ليساعد ايمي.

ظهرت الحدة على وجه دافينا ووقفت هي الأخرى، ثم حملت حقيبة يدها بعصبية ومشت بسرعة تسبقهما إلى الشارع.

أوقفها قائلاً بهدوء: «من هذه الناحية.»

لم تنظر اليه وقالت تمانع: «لا، لن أرافقك، فأنا سأعود إلى سيارتي.»

«عليك الانتظار أكثر ليخف الازدحام، وبامكاننا تناول طعام الغداء في هذه الأثناء. توقفي عن اظهار الضغينة والحقد على وجهك، ولا تنسي بأنني أنقذت حياتك قبل قليل.»

استدارت بسرعة حانقة تريد أن تصرخ في وجهه، لكنها توقفت فجأة وقد هالها ما رأته من شحوب.

www.elromancia.com

«هيا تشجعي يا دافينا.» قال ذلك بلطف بينما كان الحاجب يفتح لهم باب الفندق ويفسح لهم المجال بالدخول، ثم تابع جويل يقول: «سيفتخر بك مايكل كثيراً.»

«اخرس... ولا تحاول أن تجرب حظك معي مرة أخرى يا جويل جيلمان.» لو كان لمايكل أي وجود في حياتها، فمن المؤكد انه لن يفاخر بها، ولكان نعتها بالغباء، ثم تابعت تقول: «على أية حال، أقوم بالأشياء بملء ارادتي فقط وليس بناء على رغبة أحد سواي.»

وافقها ببرود: «انك بالطبع كذلك. هيا، غرفة الطعام في هذا الاتجاه.»

لحقت به قائلة: «هل سيارتك اتوماتيكية؟»

«نعم.»

«حسناً، ففي هذه الحالة يمكنك أن تقودها دون اجهاد، ماذا يقول الطبيب في ذلك؟»

«انها طبيبة، عموماً، انها لم تقل شيئاً.»

«لأنك لم تسألها.»

«صح. على كل، ما من طريقة أخرى للخروج من اندورا سوى بالسيارة، ولا يمكنني الانتظار إلى أن يشفى ذراعي، فأنا مضطر للعودة إلى بريطانيا في الأيام القليلة القادمة لأعيد ايمي إلى والدتها.»

لم تعلق بشيء، بل تابعت اللحاق به إلى غرفة الطعام ولاحظت اهتمام رئيس الخدم به وهو يسرع اليه مبتسماً.

طلب جويل لهم جميعاً طبق البايلا وهو من أشهر المأكولات الاسبانية، دون أن يأخذ برأي دافينا بما ترغبه. ويبدو انهم جميعهم لم يكونوا جائعين، فقد تناولوا القليل

من الطعام، خاصة دافينا التي كانت تقول لنفسها وتكرر، بأنها لن تصطحبه بسيارتها إلى خارج اندورا، ثم قالت فجأة: «يمكنك أن تستأجر سائقاً.»

«يمكنني حقاً.» ورفع نظره عن الطبق الذي أمامه ونظر إليها منتظراً.

«أو يمكنك أن تترك سيارتك هنا، وتستعمل أية سيارة اجرة لتنقلك إلى المطار.»

«لا.»

ذهلت وقالت متسائلة: «لا؟»

نفى بحركة من رأسه وقال: «أنا لا أستعمل الطائرات.»

«لا تستعملها؟ أبداً؟»

«لا.»

ان تبدل ملامح وجهه أنذرتها بعدم السؤال عن سبب ذلك. ثم قالت: «تريد من أحد الأشخاص أن ينقلك بالسيارة على طول المسافة إلى بريطانيا؟»

قال ملمحاً: «لا أريد شيئاً من أحد غير مستعد أن يقدم هذه الخدمة.»

حولت نظرها إلى الطبق الذي أمامها وأخذت تحرك ما فيه بالشوكة وتحاول التركيز على الأمر الواقع الذي فرضه عليها جويل، فلو انها بقيت ترفض سيتساءل عن السبب، تابعت تحاول أن تبعده عما يفكر به قائلة: «يمكنك السفر بالقطار، أعني من فرنسا.»

وافقها بهدوء: «نعم يمكنني.»

رمت الشوكة من يدها وقالت فجأة بحدة: «حسناً! سأصطحبك بسيارتي.»

www.elromancia.com

«شكراً لك، فلو كنت بمفردي لكنت قمت بأية محاولة، انما بوجود ايمي معي...»

قاطعته بحدة: «لقد قلت سأقوم بذلك!»

ابتسم ابتسامة المنتصر وقال: «يمكننا أن نتوقف في فرنسا وان نستعمل المركب إلى بريطانيا...»

«لا، إلى محطة سكة الحديد!»

تابع يبتسم لها قائلاً: «آه، انها ما زالت طريق بعيدة...»

قالت: «أعرف بأنها كذلك!» ثم تابعت في نفسها: لكنها ليست أبعد من المركب، لأنهما لو توقفا في فرنسا ستضطر إلى مرافقته يومان بدلاً من يوم واحد. فيكفيها انها ستتحمل بقاؤه معها في السيارة لبضع ساعات، وعادت تكرر على مسامعه: «إلى المحطة.»

طأطأ برأسه موافقاً، وعندما لازمت الصمت، لم يجرؤ على التعليق بكلمة واحدة. على أية حال، بضع ساعات لا تهم، فبامكانها أن تضغط على أعصابها وتتحمله، كما وانها لا يمكنها أن تتركه في هذا الظرف، خاصة بعد ان خلصها من الموت المحتم. لا، لن تسمح له أن يقود سيارته بنفسه مع ايمي وذراعه... ثم حنقت على نفسها لاتخاذها أعذاراً تبقيها معه. ثم قالت: «سأذهب للاتصال بشركة تأجير السيارات، وأطلب منهم أن يأتوا لاستلام سيارتي من هنا، وأذهب بعد ذلك لأجلب امتعتي منها...»

قاطعها قائلاً: «الحاجب سيقوم بذلك.»

وافقت على كلامه بحركه غير مبالية من كتفيها.

نظر إلى ابنته الصغيرة بعد ان لاحظ انها لم تتناول شيئاً من طعامها وقال: «هل تريدين شيئاً آخر يا دميتي؟»

«لا، لقد انتهيت.»

«وهل تريدين الحلوى، أو ربما المثلجات؟»

أجابت دافينا هذه المرة قائلة: «لا، هيا يا ايمي.»

«حسناً. وماذا بشأنك يا دافينا؟»

«لا، لا أشعر بالجوع أنا الأخرى.»

«سنتناول القهوة في ردهة الفندق.» ونادى على النادل ليدفع ثمن طعامهم وليطلب منه القهوة. ثم خرجوا من غرفة الطعام إلى ردهة الفندق وجلس مع ابنته على المقعد الجلدي الوثير.

قالت دافينا عند ذلك: «سأذهب للاتصال بالشركة.»

أومأ برأسه موافقاً بينما كان يحتضن ابنته الصغيرة، ثم توجهت دافينا إلى الهاتف.

وعندما عادت وجدت الحاجب ينتظرها ليأخذ منها مفتاح سيارتها ليأتي بأمتعتها منها، فأعطته المفتاح، وجلست على أحد المقاعد التي تواجه جويل وابنته، بعد ان تناولت فنجان القهوة.

ثم قال لها بهدوء: «لقد أصبحت الطريق سالكة الآن.»

أشارت برأسها كأنها تبلغه بأنها سمعت ما قاله. كان يبدو عليه الارهاق الشديد وهو يسند رأسه على ظهر المقعد، ثم ابتسم ابتسامة غريبة وقال: «لم يكن الأمر كما أردته.»

وتساءلت دافينا، ما الذي كان يريده؟ هل يقصد عن لقائهما من جديد؟ أو عن افتراقهما؟ أو فقط عن هذه الرحلة العملية التي قام بها إلى اندورا؟ ثم سألته: «كيف تشعر الآن؟»

«لست على ما يرام.»

«نعم، هذا ما فكرت به، كما وانني اعتقد أيضاً...»

قاطعها بلطف: «لا تقولي بأنه يجب علي أن أستلقي وأستريح وأن أضع الضمادة على كتفي، فكل ما يهمني الآن هو الخروج من هذا البلد والعودة إلى الوطن.»

نعم، وافقته في سرها، ان العودة إلى الوطن هو أفضل ما يقرره المرء.

عاد الحاجب ليعيد اليها مفتاح السيارة وقال لها بأدب مبتسماً: «هل تسمحين لي أن أبقي المفتاح معي، لأعيدها إلى مندوب الشركة الذي سيأتي لاسترجاع السيارة؟»

أجابته دافينا بامتنان: «آه، نعم أرجوك، هذا لطف منك.»

ثم التفت الحاجب إلى جويل وسلمه مفتاح سيارته قائلاً: «لقد وضعت أمتعة السيدة في سيارتك يا سيدي، وجئت بها إلى مدخل الفندق. آسف لاصابتك بهذا الحادث في بلادنا، وأتمنى لك الشفاء العاجل، كما أتمنى لك رحلة موفقة إلى وطنك.»

قال جويل مبتسماً بمكر: شكراً لك.»، ثم قدم له إكرامية، وساعد ايمي على النزول من المقعد قائلاً: «هيا بنا.»

أنهت دافينا القهوة بسرعة ووقفت تمسك بحقيبة يدها، وابتسمت من جديد للحاجب ثم لحقت بجويل وابنته إلى خارج الفندق.

لاحظ جويل كيف عادت دافينا وابتسمت للحاجب مرة أخرى فقال معلقاً: «لا تكثري من توزيع ابتساماتك يا دافينا.»

«هل تعتقد بأنني فعلت ذلك لأنك دفعت له إكرامية؟ على

أية حال، مهما كان السبب، فلا ضرر من اظهار الأدب، كما وأنه لا يكلف شيئاً.»

توقف ومنحها ابتسامة غريبة وقال موافقاً: «معك حق، انه لا يكلف شيئاً. اعتقد انني كنت طوال الوقت أصاحب الأشخاص غير المناسبين. هل يمكنك...» وسكت، وكأنما دافينا فهمت، فأومأت برأسها وساعدت ايمي إلى الدخول إلى السيارة وأجلستها على مقعد خاص بالأطفال، ثم توجهت إلى باب السائق، بينما تقدم جويل إلى السيارة ليجلس في المقعد إلى جانبها وربط حزام الأمان.

تساءلت وقد أدارت محرك السيارة، الأشخاص غير المناسبين؟ يعني الناس الذين يتوقعون منه الاسراف بأمواله عليهم؟ لكن جويل ليس من هذا النوع، ولكن من أين لها أن تعرف؟ تنهدت بعد ذلك وانطلقت في شوارع البلدة الضيقة، ووجدت كم ان قيادة هذه السيارة مريحة وسهلة، فلا بد ان ايجارها غالي الثمن. أخذت تقودها بانتباه كلي وببطء في البداية لتعتاد على قيادتها، وسرها هدوء جويل وهدوء ايمي الجالسة في الخلف.

كانت الثلوج تكلل أعالي الجبال المحيطة بتلك الطريق، وكانت كلما صعدت أكثر باتجاهها، شعرت بالجو يزداد برودة مع ان الشمس ساطعة والسماء صافية خالية من الغيوم. ان الصيف قريباً سيفرش الحقول الفسيحة بأزهار ملونة وتدفيء الشمس بأشعتها وحرارتها تلك المنحدرات المتعرجة. ومراكز التزلج ستقفل أبوابها إلى أن يعود الشتاء مرة أخرى.

سألها جويل فجأة: «هل تشعرين بالبرد؟»

نفت بحركة من رأسها، ثم تابع يقول بلطف: «يسرني سماع ذلك.»

فهمست بضيق: «يسرك ذلك؟ بأنني لا أشعر بالبرد؟»

«لا، لم أقصد ذلك، بل قصدت سرني ان نلتقي من جديد، وبأن قصتنا لم تنته.»

أسرعت تقول حانقة: «ولكنها انتهت. ولقد اتضح لك ذلك جلياً الليلة الماضية. صحيح انك انقذت حياتي، ولكنني ها أنا أرد لك صنيعك.»

«نعم، انك ترافقيني إلى فرنسا، وأنا ممتن لك كثيراً.»

«وهذا سينهي كل شيء.»

«نعم يا دافينا سينتهي كل شيء.»

أجابت بايجاز: «جيد.»

ثم قال: «اخبريني عن رحلتك هذه، أين كنت وماذا فعلت؟ سمعتك تقولين انك كنت في اسبانيا الشمالية.»

أجابت باقتضاب: «نعم.» متسائلة في نفسها هل يعتبرها شيئاً مهماً ليلاحقها بعزم، ولكن هذا ما لا يقبله العقل، لأنها لا تريد منه ذلك.

حثها على متابعة كلامها: «اسبانيا؟»

«ماذا؟ آه، نعم اسبانيا. أحدث الناس عن الاعشاب وفوائدها، وأتبادل الآراء معهم، وذلك لم يمنعني من زيارة المعالم الأثرية في هذه البلاد.»

«لكنني اعتقدت ان اسبانيا الشمالية منطقة جبلية وعرة، فهل تمكنت من الوصول إليها بالسيارة؟»

«في بعض الأماكن نعم، ولكنني اضطررت إلى السير على الأقدام في الأماكن التي لم تشق فيها الطرقات.»

«لتفتشي عن الأعشاب؟»

«نعم، بالطبع، وما غير ذلك؟ فهذا ما أقوم به في حياتي العملية.»

فسألها بابتسامة مستفزة: «أهذا فقط ما تقومين به؟»

«نعم، لا، آه. اخرس يا جويل، لقد عملت بجهد ومشقة لأن أصل إلى ما أنا عليه الآن، وحققت ما أمكنني...»

قاطعها ببرود ليقول: «وهل انكرت عليك ذلك؟»

«لا، لكن أريدك أن تعلم بأنني فخورة جداً بما حققته لغاية الآن.»

«لك كل الأسباب لتكوني كذلك.»

«نعم.» وافقته مع انها كانت تعلم بأن هناك شيئاً لم تستطع تحقيقه خلال حياتها، لكنها أبعدت الفكرة عن رأسها وتابعت تركز اهتمامها على الطريق التي أمامها. لقد كادوا أن يقتربوا من الممر، فشعرت بخوف وقشعريرة باردة تسري في عروقها من القصص المخيفة حول خطر انحدار هذا الممر. وأجبرت نفسها على التفكير بشيء آخر، فأجابت جويل بإيضاح أوسع قائلة: «كنت أرغب دائماً بمشاهدة أماكن نمو الأعشاب الفريدة... وان أرى الخيول الوحشية، لكن الظروف لم تسمح لي بمشاهدة الكثير، لأن الباص فاتني.»

«الباص؟» تساءل جويل وكانت عيناه تلمعان بمرح.

«نعم، لقد اعتقدت ان الأمر سيكون أسهل عليّ من قيادة السيارة، وكنا سنمر في قرية يوزاندا دو فالديون.»

«آه... لا حاجة لك بأن تكوني محتدة هكذا، فأنا في الحقيقة مهتم بما تقولينه.»

سألته بشك: «هل أنت حقاً كذلك؟» بينما أخذت تدخل في الممر الجبلي والضباب يحيط بهم إلى ان خف تدريجياً ليسهّل عليها الرؤية.

«نعم، وهل رأيت كل ما أردت رؤيته؟»

«ماذا؟ آه، لا، فيوم واحدة لا يكفي لمشاهدة كل شيء.» تمتمت وحولت كل انتباهها تركزه على طريق الممر الملتوي.

«نعم، فتأخذ السيارة إلى حيث الحقول الصخرية، وان تشاهد الرسومات في كهف بوكسو، آه...» توقفت عن الكلام فجأة عندما وجدت المنعطف أصعب مما كانت تتوقعه، فتمسكت بعجلة القيادة بقوة وهي تشعر بالخوف في داخلها.

هدأ من روعها بلطف وقال: «تابعي السير، انك تقومين بعملك على أحسن وجه.»

ضحكت بخوف وقالت: «انني لا أشعر سوى بالخوف، يا له من منعطف رهيب!»

«نعم.»

«وهذا الضباب الذي يحجب عني الرؤية!»

«أضيئي النور المخصص للضباب وستشعرين بالارتياح أكثر.»

فعلت ما أشار عليها أن تفعله وتابعت كلامها قائلة: «لكن الوقت لم يسعفني لرؤية البحيرات الجليدية.»

«أمر مؤسف حقاً، فهذه من الأشياء التي تستحق رؤيتها.»

ذهلت عندما اكتشفت أخيراً فرحته بحديثها والذي

يخالف الظروف الدقيقة التي يعيشونها في هذا الممر المخيف، ثم أطلقت ضحكة واهية وقالت: «يبدو انك لم تسمع بهذه البحيرات في حياتك كلها.»

اجاب: «لا، انما أنت تجيدين الحديث عن هذه الأماكن كما لو كان في كتاب دليل السائح. هل هناك حقاً خيول وحشية؟»

«نعم، كما وانه هناك أيضاً، الكلاب الوحشية، وطيور الباز والصقر والنسر...»

سألها: «هل رأيتهم جميعهم؟»

ابتسمت ونفت بحركة من رأسها ثم قالت: «فقط حيوان الظباء. لكن، آه يا جويل، الأماكن هناك في غاية الروعة والجمال، خاصة غابات شجر الزان، آه، هل تمكنت من رؤية ذلك؟» هتفت أخيراً بخوف وجزع: «ان السلك الحديدي مقطوع، ولا بد ان أحدهم فعل ذلك...»

هدأ من روعها وقال: «ليس من الضروري، قد يكون سبب انقطاع السلك الحديدي تساقط الثلوج عليه، أو سقوط صخرة من الأعلى... إذاً هل أنت عازمة على العودة اليها في أحد الأيام، لتتمكني من رؤية ما فاتك؟»

«نعم، لأقطع الجسور القديمة فوق الأنهر الجارية، ولأمتع نظري بحقول التبن الممتدة والتي تتلألأ تحت أشعة الشمس، ولأرى الياسمين البري وأشجار البرباريس ذات الزهر الأصفر، وأشجار الصنوبر والتوت.»

«اشجار الصنوبر تهمني جداً، فما رأيك يا دميتي؟» وعندما لم يحظ بجواب من ابنته، التفت نحوها وتابع مبتسماً: «انها تغط في نوم عميق، هذا أفضل ما يمكن أن تقوم به.»

www.elromancia.com

وافقته دافينا في الحال: «نعم.»

«أرى ان الطريق بدأت تستقيم بعد تلك المنعطفات الرهيبة.»

أجابت وقد بدأ يتلاشى خوفها: «نعم، ولا أقدر ان أتصور كيف كنت ستتدبر أمرك وأنت مصاب بذراعك؟»

«انها ليست مصابة، ولم يكن في نيتي أن أقود سيارتي منذ البداية.»

«ماذا؟»

«تابعي انتباهك على الطريق أمامك!»

سألته مرتجفة بعد ان استفاقت من صدمة ما قاله: «ماذا تعني بقولك بأنه لم يكن في نيتك؟ فلو لم تقابلني...»

قاطعها بلطف: «دافينا، أنا لم ألتق بك بمحض الصدفة هذا الصباح.»

«بالطبع فعلت! لقد كنت وراءك!»

ابتسم وقال: «يمكنك ملاحقة الأشخاص في كل الأحوال وبسهولة كما تعلمين.»

«هل كنت تراقبني؟»

«نعم.»

«لكن لماذا؟»

«تعلمين لماذا.»

«نعم، لأن ذراعك كان مصاب وتحتاج إلى سائق!» انزعجت من نفسها ومن الظروف التي عادت لتجمعهما من جديد.

فقال بمكر: «هل أصبت بخيبة أمل؟»

«لا، انما أريد أن أعرف سبب انفصالك عن سيليا؟ انك

تلاحقني بأسئلة تخصني، واقفلت فمك بالتحدث عن حياتك الخاصة.»

«لأنني لم اعتقد بأن ذلك قد يهمك.»

«ان ذلك لا يهمني بالفعل، انما لأنه مضيعة للوقت.»

«معك حق.»

نظرت اليه بشك ثم عادت تركز انتباهها على الطريق وقالت بالحاح: «حسناً؟»

«سبب انفصالي عنها يعود إلى عدة أسباب، أهمها عدم التفاهم والانسجام.»

«وهل ذلك من الطرفين؟»

«نعم.»

«وهذا كل ما في الأمر؟»

«نعم.»

خيّم صمت بسيط ثم قال فجأة: «لكن الذي يحيرني وأريد معرفته، هو كيف عرفت بأنني تزوجت منها؟»

اندهشت، انها لم يخطر ببالها أبداً بأنه قد يطرح عليها مثل هذا السؤال، فترددت وقالت: «ذلك... ذلك لأن أحدهم اخبرني بهذا الأمر!»

«من؟» سألها بنفس النبرة اللطيفة التي بدأ بها.

«لا أذكر، وكيف يمكنني أن أتذكر، لقد مضى وقت طويل على ذلك!» كذبت عليه لأنه لم يكن في نيتها أن تخبره بأنها كانت تتقصى أخباره من الذين يعرفونه إلى ان اكتشفت بأنه تزوج! وأنبت نفسها ونعتتها بالغباء لأنها لم تدبر قبل الآن كذبة غير تلك، أو لو انها قالت بأن تلك السيدة التي أقامت الحفلة هي التي أخبرتها بذلك. ثم

www.elromancia.com

تابعت: «لماذا والدتك لم تكن متمتعة بالأمومة كأي أم؟»

«إذا كنت لا تستطيعين الاجابة عن سؤالي، فلنغير الموضوع، على أية حال، من أين لي أن أعرف بأنها لا تتمتع بالأمومة؟ ربما لأنها لا تحب الأولاد وورثت ذلك عنها.»

«لكنك تحب الأولاد، فلديك ايمي تحبها وتحسن معاملتها.»

«نعم، كما انها الشيء الوحيد الذي أقدره في حياتي أكثر من أي شيء آخر. كما وانني لا أفكر بالزواج من جديد، لأنني أتمسك باستقلاليتي.»

«وماذا عن الأشياء التي أقرأها عنك في الصحف من وقت لآخر، هل راودتك فكرة الانتحار مرة؟»

«ما الذي يجعلك تعتقدين ذلك؟»

هزت بكتفيها دون اهتمام وقالت: «لا أدري، ربما لأن والدتك لا تتمتع بالأمومة؟ أو ربما لا تقدر أن تحتفظ بصداقة واحدة؟»

بدا عليه الذهول التام وعادت تؤنب نفسها لأنها قادته إلى مثل هذا الحديث، خاصة عندما قال لها باستهزاء وسخرية: «عليك فقط الاهتمام والتركيز على أعشابك الطبية، فالمسائل الشخصية حتماً تربكك وتحيرك، كما عليك أن لا تعطي أذناً صاغية للشائعات والأقاويل التي تدور حولي. لقد ارتبطت مرة واحدة لا غير بارتباط الزواج مع سيليا، فهل انفصالي عنها يجعلني أفكر بالانتحار؟»

«لا.»

«ان مزاولتي للرسم تجعل مني انساناً سكوتاً، أقف

لساعات طويلة في مكاني، أركز وأدقق النظر بينما رأسي مشوش بألوان عديدة إلى ان استقر بالرأي على بعضها، وتصدقين كل ما تقرئينه ويشاع عني. وكم من المرات والمرات أصبت بتشنج بقدماي.»

«لماذا لا تشتري لنفسك دراجة هوائية لتخلصك من ذلك التشنج.»

«لا اعتقد ان ذلك يكفي... ولا تحاولي أن تقولي إن طفولتي كانت بائسة لأن والدتي لم تتمتع بالأمومة!»

الم تكن حقاً؟ أليس هو الآن في وضع يحاول فيه أن يسدّ الفراغ العاطفي الذي حرم منه في طفولته؟ لماذا يهمها هذا الأمر وبهذه الدرجة؟ وكما سبق وقال لها عليها أن تحصر اهتمامها فقط بالأعشاب الطبية ولا شيء عدا ذلك، فهي على الأقل لا تحطم القلوب وتؤلمها.

ثم سألها بسخرية: «كيف كانت طفولتك أنت؟»

«ممتازة.»

«جيد. والآن سأعمل بنصيحتك وأنام قليلاً، هل ستكونين بخير؟»

أجابته: «نعم.» بينما لم تكن كذلك، لم تكن بخير أبداً.

«لا داعي لذلك القلق، أيقظيني عند أول مشكلة تعترضك.»

فقالت مستهزئة: «وماذا يسعك أن تفعل؟ هل سترعب التنين وتبعده؟»

أجابها بكبرياء وانفة: «نعم، وبذراعي الأيمن الغير مصاب.»

فقالت بحنق: «اعتقد انك قد تكون الأكثر...» ثم تراجعت وأمسكت نفسها عن الكلام، لأنه كان من السهل جداً أن تقع

www.elromancia.com

معه في شجار، لذا عليها أن تفكر بطريقة تبعده عنها وعن ملاحقتها.

وأخذت تكلم وتجيب نفسها في سرها.

انك متكدرة.

لا، لست كذلك.

لا بل انك كذلك، تريدين منه أن يتابع ملاحقتك.

لا.

بلى. وذلك ارضاء لغرورك.

كاذبة.

آه يا دافينا ما رأيك لو تخرسين.

تنهدت ثم نظرت اليه بسرعة وفكرت بصلبه وكبريائه اللذان يؤكدان له بأنه دائماً على حق. ونظرت إلى ايمي من خلال المرآة التي أمامها لتجد بأنها ما زالت تنعم بنوم هادىء، وعادت تفكر من جديد بتلك السنوات الأربع بعد ان انقطعت عن جويل، وكيف ارهقت نفسها بالعمل والبحث المتواصلين، ومايكل الذي ادعت بأنه خطيبها وكان ناشر كتبها، لم تحبه ولم يحبها بالمقابل، بل كان يعامل كلا منهما الآخر باحترام.

عادت تنظر إليه وكأنها لا تملّ من النظر اليه، وحاولت أن تقنع نفسها بأنها فقط وافقت على قيادة سيارته بداعي الشفقة ولأنه كان في حالة تعب شديد، لكنها لم تكن الحقيقة، واعتقدت انه أيضاً يعرف ذلك. وتأكد لها، أنه لسلامة عقلها عليها أن تنسى الشخص الذي عرفته قبل جويل والذي سبب لها جرحاً عميقاً. ولكنها كانت تشعر وتدرك أن أمراً كهذا لا يمكن لأي امرأة أن تنساه. ثم سألت نفسها بعنف: وهل ستمضين بقية

حياتك على هذا المنوال يا دافينا؟ لأنك تخشين من ان تتأذي مرة أخرى؟ لم تجد جواباً يريح أفكارها المشوشة. وعادت تركز اهتمامها على الطريق التي تقطعها، ولاحظت كم ان النوم الذي يغط فيه جويل غير مريح وهادىء.

وكأنه أدرك ما تفكر به، استفاق فجأة من نومه متنهداً، وظهرت على ملامحه الدهشة كأنه لا يعرف أين هو، ثم قال: «أين نحن الآن؟»

«لا فكرة لدي، فأنا ما زلت أسير في الطريق الرئيسي باتجاه تولوز.»

فقال لها وهو ينظر إلى ساعة يده: «لا داعي لهذا الغضب، آه، انها الساعة الخامسة... يجب أن نصل إلى هناك بعد قليل.» ثم استدار ليطمئن على ايمي وتابع يقول: «انها ما زالت نائمة. بالمناسبة، هل تشعرين بالتعب؟»

«قليلاً.»

«إذاً، توقفي عندما تتعبين أكثر.»

«سأفعل.» قالت ذلك على نحو قاطع بينما ضحك هو.

«هيا يا دافينا، تشاجري معي.»

فسألته بحدة: «ماذا؟ لا رغبة لي في ذلك. على فكرة، كيف جروحاتك؟»

«بخير.»

فبادرته بسخرية: «يا لك من مقاتل شجاع!»

«نعم، الكابتن الشجاع هو أنا.»

ابتسمت في سرها، بينما أخذت تدخل ضواحي البلدة، وحاولت أن تبحث بنظرها على أية اشارة تدلها إلى محطة سكة الحديد، إلى ان عثرت عليها أخيراً.

أوقفت السيارة وتمتم جويل عند ذلك: «سأذهب لأخذ بعض المعلومات، ما رأيك؟»

وافقته بثبات: «نعم اذهب.»

فابتسم ابتسامة واسعة وقال مستهزئاً: «يا لهذا القلب القاسي!» ثم خرج من السيارة ليتوجه إلى المحطة، فتنهدت وقالت في نفسها، إذا حالفها الحظ سيستقل القطار من هذه المحطة وتذهب هي إلى أقرب مطار لتسافر منه إلى وطنها.

عاد بعد عشر دقائق، ورأته يمسك يده اليسرى باليمنى، فتساءلت باشفاق عن مدى الألم الذي يعاني منه.

قال بعد ان اصبح في السيارة: «لا يمكننا سوى استعمال القطار السريع والذي يصل بنا إلى باريس، ومن هناك نسافر بالمركب.»

«وماذا بشأن هذه السيارة؟»

«سنضطر إلى تركها هنا لتتسلمها الشركة لاحقاً... إلا إذا أردت استعمالها.»

«في أية ساعة ينطلق القطار السريع؟»

«في الساعة العاشرة.»

«هذا يعني انك ستضطر لأن تمضي هذه الليلة في باريس... آه.» أدارت محرك السيارة وتابعت تقول: «سأوصلك إلى محطة القطار السريع إذاً.»

«شكراً لك، لكن ليس هذه الليلة.»

«جويل...»

«ذلك لأنك في غاية التعب والارهاق.»

«لا، لست كذلك، كما انني أفضل أن أتابع السير.»

«إذاً سنتوقف في أي مكان لنتناول فنجاناً من الشاي.»

شعرت بالغباء وبأنها مسيّرة وليست مخيّرة، فانطلقت بالسيارة بحثاً عن أي مكان لتناول الشاي.

ثم سمعته يقول بهدوء: «هناك.»

«ماذا؟»

أشار إلى المكان فأطاعته صاغرة، وتبعت الاشارات إلى ان ادركت فجأة إلى أين كانت تتجه فأوقفت السيارة بسرعة وقالت: «هذا فندق! آه، نسيت انني برفقة الدوق الذي يرغب الآن بشرب الشاي.»

فأمرها جويل بهدوء: «هيا تحركي.»

سألته غير مصدقة: «هنا؟»

«بالتأكيد هنا.»

تابعت السير كما طلب منها ثم قالت ملمحة: «لكنهم لن يسمحوا لنا بالدخول.» ونظرت إلى ملابسه وحالته المؤسفة، ثم إلى ملابسها هي التي علقت بها غبار السفر وتابعت تقول: «يبدو مظهرنا وكأننا من الطبقة الفقيرة.»

فأجابها ببرود: «أنت من يبدو عليها هذا، بينما أنا أبدو ارستقراطياً وبوضوح شديد.»

نعم، على الأرجح انه لكذلك، مع انها كانت تدرك بأنه يمزح، فهو والحق يقال تبدو عليه مظاهر الارستقراطية. لذا فانها لم تزد على كلامه كلمة واحدة كي لا تزيد من غروره، تنهدت وتابعت طريقها لتتوقف بعد ذلك أمام مدخل الفندق الرائع، وظهر فجأة أحد مستخدمي الفندق، وقد ارتدى بزة قرمزية اللون وقبعة صغيرة مستديرة الشكل فوق وجه لوّحته الشمس. انحنى لهما ثم فتح باب دافينا وهو يبتسم ابتسامة واهية وترجلت من السيارة، فعل جويل بالمثل، ثم

www.elromancia.com

فتح الباب الخلفي للسيارة وابتسم لايمي التي فتحت عينيها.

«استيقظت يا صغيرتي؟»

«استيقظت.» كررت قوله بنعاس، ثم تثاءبت ومدت ذراعيها لوالدها.

حاول أن يحملها بذراع واحدة ولكنه لم يستطع، فأسرعت للصغيرة وأخذتها بين أحضانها، وعادت تستيقظ في نفسها عاطفة ودفء الأمومة. ناول جويل مفتاح السيارة للعامل ليوقفها في المكان المخصص لها، ثم ألحّ على دافينا بالدخول.

استقبلتهما سجادة حمراء فاخرة، وأثاث مخملي رائع وشمعدانات بديعة، وباختصار ردهة تريح النفس وتبهجها. توجه جويل إلى مكتب الاستعلامات دون أن يعيرها أي اهتمام.

«جويل! لقد سبق وقلت لك...» بدأت الكلام وتوقفت عن المتابعة بعد ان سمعته يتنهد بعصبية وهو يوقّع على دفتر الحجوزات.

وبعد ان انتهى من عمله، التفت نحوها وقال: «كما قلت لك، المسافة طويلة جداً لنقطعها هذه الليلة، لذا سنمضي ليلتنا هنا وليس في نيتي أي شيء آخر.»

أجابت بغضب وقد فهمت الذي قصده من كلامه أخيراً: «لم أفكر قطعياً بذلك، بل قصدت الاستبدادية في تصرفاتك...» توقفت عن متابعة الكلام وقد أدركت ان عامل الاستعلامات يتنصت للحديث الذي يدور بينهما، فنظرت اليه بحدة ولحقت بالخادم إلى المصعد. ففي

الحقيقة، كانت تشعر بأنها قادرة على أن توصله إلى المحطة وبأن التعب الذي يتكلم عنه، لم ينل منها بعد، على كل ستقول رأيها بصراحة حالما تصبح بمفردها معه.

صعدوا إلى الطابق الثالث، ومشوا على سجاد أخضر بالٍ، وفي ممر جدرانه مطلية بلون رمادي، وأضيء بأنوار خافتة.

قالت ايمي فجأة: «سأمشي.» فانزلتها دافينا إلى الأرض.

«إنها توافقك على أي شيء.» تمتمت دافينا وهي ما زالت تشعر بالغضب من تصرفاته، ووصلوا إلى آخر الممر حيث وجدت غرفتين مقابلتين، ففكرت دافينا بايمي الصغيرة التي تحب والدها والتي اعتادت على جميع تصرفاته الشاذة وتجدها أمراً من الأمور الطبيعية. ادخل الخادم المفتاح في كلاً من القفلين على نحو متتالي وفتح لهما البابين، وقال: «الجناح الفخم.»

لازمت دافينا الصمت بصبر إلى ان يصبحا بمفردهما ودخلت إلى الغرفة، فوجدت النوافذ واسعة تتدلى من أعلاها وإلى اسفلها ستائر ثمينة فاتحة اللون، والأرض مغطاة بسجادة فاخرة عليها كنبة طويلة ومقعدين بقماش بمثل قماش الستائر، وإلى جانب الحائط، طاولة وضع عليها مزهرية فيها أزهار تبهج النفس وتنعشها. وكان في الطرف الآخر من الغرفة طاولة لتناول الطعام مع أربعة كراسٍ تحيط بها.

وصلت حقائبهما ووضعت في الغرفتين ومنح جويل كل من ساعده من الخدم إكرامية، فعلقت دافينا بعد ان اصبحا

www.elromancia.com

بمفردهما قائلة: «كيف بامكانهم أن يظهروا الامتعاض وأنت تعاملهم بهذا الكرم والسخاء؟»

أجابها جويل ببرود: «انهم اصيلون.»

فصححت كلامه قائلة: «لا، بل يملكون الحاسة السادسة ويشعرون بأصحاب الثراء من على بعد أميال. بالمناسبة، لقد قلت بأننا جئنا فقط لنتناول الشاي!»

«حقاً؟»

«نعم!»

«سأقفز على السرير.» قالت ايمي فجأة، وكأنها شعرت بأنها تريد أن تشغل نفسها بشيء بينما هما يتحدثان.

فقال لها جويل بصوت هادىء: «انزعي حذاءك إذاً، وانتبهي إلى نفسك كي لا تقعي.»

«لا تقعي.» كررت ايمي كلام والدها كعادتها بينما جلست لتنزع الحذاء.

«هل تريدين استعمال الحمام؟»

أجابت ايمي: «لا.» وبدأت تحاول القفز على السرير.

بدأت دافينا تقول: «جويل...»

فقاطعها بعزم: «لا تقولي شيئاً، الأغبياء فقط يقودون سياراتهم على نحو متواصل، ولا تعتقدي بأنني أسخر من طريقتك في القيادة، تذكري انك كدت أن تصابين بحادث رهيب هذا الصباح، أنت مخطئة إذا كنت تعتقدين بأنك استفقت من تلك الصدمة، وبعد ذلك كان عليك أن تقودي السيارة في ذلك الممر المخيف والذي يعتبر صعب حتى لمن لم يصابوا بأية صدمة ويشعرون بارتياح تام، فحاولي الآن أن ترتاحي...»

قاطعته منكرة عليه قوله: «لا أشعر بشيء كي أرتاح.»

تابع يتكلم وتجاهل ما قالته: «لذا، فأنا أرى ان هذا هو الحل الأفضل، لأنني لا أود أن أورطك في أية مشاكل، ألا تعتقدين ذلك؟ حتى لو أردت ذلك...»

«هذا ما لن تفعله.»

وافقها قائلاً: «معك حق، لكنني حتى لو فعلت، فأي طفل في الثانية من عمره يمكنه أن يهزمني خاصة وان ذراعي مصاب... انك ترفضين التكلم معي لتتعرفي علي أكثر، ولكن ذلك لن يمحو ما كان بيننا من صداقة، لقد سبق وقلت لك بأنني لن أتعبك ولن ألاحقك وهذا ما سوف يكون. وأتساءل لماذا لا نحاول من جديد ونجدد صداقتنا؟»

تساءلت دافينا في نفسها، نجدد صداقتنا؟ ومعه هو بالذات؟ ثم أردفت تقول: «لا تكن سخيفاً، انك لست من النوع الذي ترتاح له المرأة.»

تجاهل كلامها وتابع يقول: «من جهتي، لغاية الآن لا أستطيع نسيان تلك الصداقة.»

«جويل! قلت لك ان تتوقف عن هذه السخافات!»

«وهل تسمينها سخافات؟ لكن لماذا؟»

«انك تعرف جيداً لماذا! لأنني...»

«لأنك مخطوبة؟»

www.elromancia.com

الفصل الرابع

«جويل!» اعترضته دافينا بذعر، ونظرت بسرعة إلى ايمي الصغيرة لتتأكد من أنها ليست مصغية اليهما، ثم تحولت إليه بنظرها معاتبة ومؤنبة وتابعت تقول: «هناك أمور ينبغي عليك أن لا تتفوه بها!»

«هل هناك حقاً؟ وهل الحديث عن صداقتنا السابقة أحد هذه الأمور؟»

«توقف.»

ابتسم ابتسامة ساخرة وقال: «لماذا؟ على فكرة، لماذا لا تضعين في اصبعك خاتم الخطوبة؟»

فقالت بارتباك: «ماذا؟»

«الخاتم يا دافينا، انه الدليل الوحيد على انك امرأة مخطوبة.»

ترددت قائلة: «لأننا... لأننا لم نختر واحداً بعد! فلا تحاول أن تغيّر دفة الحديث!»

«لم أفعل ذلك، ولكنني كنت أحاول فقط أن أتأكد وأطمئن على صفاء الأمور بينك وبين خطيبك. أو انها ربما ليست كذلك؟»

«لا، اطمئن.»

«إذاً، لِمَ هذا النقاش؟ فأنا اعتقد ان هذا الجناح هو الحل الأنسب، ولا أقصد بذلك بأنني سوف استغل هذا الواقع، انما كنت أفكر بايمي التي لن استطيع الاعتناء بها وذراعي

مصابة، كما انه يمكنني أن أطلب خادمة لتهتم بشؤونها، ولكن...»

قاطعته وقد نفد صبرها: «لا! وهذا ليس ما كنت أحاول أن أقوله قبل أن تسدّ علي الطريق ولم تفسح لي المجال بالتكلم! كما وانني لم أشأ أن أتذمر من هذه التدابير التي خططت لها... فأنا أشعر بأنك تتألم من ذراعك المصابة فلست غبية كما تظن. فقد كنت أريد أن أعرف لماذا تسيطر على تحركاتي ورغباتي، وبالتالي على هذه التكاليف!»

فسألها وكأن هذه الكلمة لا وجود لها في قاموسه: «التكاليف؟ تعنين تكاليف هذا الجناح؟»

«نعم، هذا طبعاً ما أعنيه!»

بدا عليه عدم الاكتراث لمثل هذه الأمور وقال: «لا تقلقي، فنحن لن نقيم فيه إلى الأبد.» وتابع ينظر اليها ثم سألها بهدوء: «ما الذي يخيفك مني لهذه الدرجة يا دافينا؟»

«لا شيء، فلا تكن سخيفاً، وأرى انه من الأفضل لك أن تذهب وترتاح.»

«سوياً؟»

«لا! وتوقف عن سخافاتك. أو ربما تعتقد في قرارة نفسك بأن هذا هو ما تطلبه كل امرأة؟»

«هل تجدينني كذلك؟»

«نعم، ويبدو عليك انك نسيت بأنني لم أعد في الثانية والعشرين من عمري، كما وانني لم أعد ساذجة. وأعلم جيداً لماذا لاحقتني في اندورا!»

«حقاً؟ هل لأنني اعتقدت بأنك تريدينني أن ألاحقك؟ وبالطريقة التي أردتها منذ أربع سنوات؟»

www.elromancia.com

«ما أردت ذلك على الاطلاق! وعلى أية حال، كنت أظن بأنك لم تعرف أحد سواي.»

«لقد كنت فعلاً.»

فقالت هازئة: «آه، لم تعرف أحداً، هه؟ فكيف تفسّر إذاً ذهابك إليها بعد يومين من لقائنا؟»

«وهل هذا يثير حساسيتك؟»

«نعم، وبالتأكيد! خاصة وانني كنت ما زلت أعاني الأمرين بعد ان هجرني بول...»

«ثم بعد بضعة أسابيع أخرى هجرتك أنا؟ لكنك أنت التي لم تريديني، لأنك كنت ما زلت متعلقة ببول، وكنت أنا بالنسبة لك وسيلة لتنتقمي منه، أليس كذلك؟»

«نعم.» أجابت وقد أوقعت نفسها في الفخ من شدة غبائها، فأشاحت بوجهها عنه تفكر بمخرج من الورطة التي أدخلت نفسها فيها.

ثم تابع جويل يقول لها بالحاح: «ألم أكن أنا تلك الوسيلة؟»

لم تستطع دافينا أن تتفوه بأية كلمة فلزمت الصمت وكأنه الخلاص الوحيد.

«هل أحببتها؟»

تنهد وقال: «ليس بالمعنى الحقيقي والمفهوم العام للحب، انما كنت معجب بها فقط، واعتقدت بأنها قد تكون هي فتاة أحلامي، لكنني اكتشفت بعد ذلك انها لم تكن كذلك. كانت تعيش حياتها بالطريقة التي تراها وحدها مناسبة، ولسوء الحظ، كنت أنا أشاركها في تلك الحياة...»

«كما فرضت الظروف أن تكون مع والدتك؟»

بدت عليه الدهشة للحظات قليلة، ثم حرك كتفيه دون اكتراث وقال: «ربما، لكنها عندما اكتشفت بأنه لا يمكنها التحكم والسيطرة على حياتي... ولكن اخبريني، هل كنت تريدين أن أبقى معك؟»

نفت بحركة من رأسها، لأنها لم تكن تريده بالفعل في ذلك الوقت.

«ربما توقعت مني أن أبقى؟»

ترددت قليلاً قبل أن تنفي ذلك مجدداً.

فسألها عند ذلك بلطف: «إذاً، لماذا أخذت تسألين عني؟»

حدقت به وقالت بحدة: «لم أفعل ذلك!»

«فكيف عرفت إذاً بأنني ذهبت إلى سيليا بعد يومين من لقائنا؟»

«لأنني...»

«لأنك فعلاً سألت، ولكن لماذا؟»

فقالت في سرها، لأراك، ربما لأنني أحببتك، لكنها لم تستطع أن تقول شيئاً من ذلك. وعندما وجدته ينتظر الاجابة منها قالت: «أردت أن أعتذر منك.»

بدت على ملامحه الدهشة والشك معاً ثم قال: «أن تعتذري مني؟ ألهذا السبب فقط؟»

أجابت مؤكدة: «نعم، لقد كنت أشعر بالخجل من تصرفي بعد ان اتخذتك وسيلة للانتقام، وأردت أن أعتذر.»

«لكنك لم تفعلي ذلك.»

«لا، لأنني لم أكن متأكدة من عنوان منزلك، فتوقفت لأسأل أحد الأشخاص، الذي كان يعتني باحدى الحدائق، فأجابني: سيليا وجويل؟ نعم بالطبع أعرفهما، انهما

يعيشان في المنزل رقم اثنان وثلاثون... وسألته أيضاً، ليطمئن بالي فيما لو ان سيليا حقاً تعيش معك...

«وهل أكد لك ذلك؟»

«نعم، حتى انه قال بأنه رآك تخرج بينما سيليا ما زالت داخل المنزل.»

«ولذلك السبب عدت أدراجك ولم تقرعي على الباب.»

أجابت دافينا بحيرة وارتباك: «نعم. حتى انني سألته إذا كان يعلم أيضاً منذ متى وأنت تعيش هنا، فأجابني على هذا السؤال.» لقد أجابها حقاً، لأنه كان يعلم كل شيء يتعلق بالذين يعيشون في تلك المنطقة.

«وقال لك بأنني عدت إلى ذلك المنزل بعد يومين من فراقنا، لذا عدت من حيث أتيت وقد شعرت بأنك رُفضت مرتين، أولاً من بول وثانياً مني بالذات.»

فقالت في نفسها لما لا تصرّح بذلك أمامه، ثم قالت علناً: «نعم، لأنني أحببت بول قبل أن أتعرف عليك، ولكنني عندما التقيتك...»

«وجدت فارقاً كبيراً بيني وبينه.»

«نعم، وطلبت منك أن تتركني، لأنني شعرت بالخجل من تصرفي معك... ولكنني عندما اكتشفت بأنك توجهت رأساً إلى سيليا، شعرت بأنني خُدعت، وكأنني لا أساوي شيئاً في هذه الحياة... آه، لا معنى لكل ذلك الآن، لكن الظروف قد سمحت لأن نلتقي من جديد وبطريق الصدفة، فاعتقدت بأنني سهلة المنال وهذا كل ما في الأمر!»

«أهذا ما تعتقدينه؟»

«نعم، واعتقدت أيضاً بأنك ستلهو لبعض الوقت، لأنك لا تراني بالشخص الجدير بالاحترام.»

«أحقاً لا أراك كذلك؟»

«لا. وتوقف عن الاجابة على اسئلتي بأسئلة مماثلة. لربما...»

«ربما؟»

فقالت بحدة: «فإذا لم يكن في نيتك أن تبادلني الانتقام بالذي فعلته معك، ربما تريد أن تجعلني شيئاً من ممتلكاتك!»

سألها بذهول تام: «ممتلكاتي؟»

«نعم! كما حاولت مع سيليا والتي ذهبت اليها فوراً عندما طلبت منك الابتعاد عني.»

«ذهبت اليها بعدما علمت بأنها حامل.»

«نعم، لأنها كانت حامل.»

«ألم تصدقيني؟»

«لا يهم ما أصدقه أو لا أصدقه، أليس كذلك؟»

أجابها مفكراً: «نعم، وأعلم بأنك جُرحت بمشاعرك مع بول، واستعملتني كوسيلة للتخفيف مما أصابك، وهذا كل ما في الأمر، وأقول لك بصدق، بأنني أشعر بالأسف لما فعله معك بول.»

«هل تشعر فعلاً هكذا؟» وآلمها قلبها من جديد والذي لم يفارقه الألم طوال تلك السنوات، مع انها شغلت نفسها بالأبحاث المتواصلة حول المعالجة بواسطة الأعشاب بعد مرض والدتها. وكم من المرات كانت تتهم جويل دون سواه للألم المزمن في قلبها، لكن أليس من الواجب عليها أن تشكره على ذلك؟ فانشغالها بتلك الأبحاث جعلت منها امرأة

www.elromancia.com

ناجحة يطلبونها إلى أقاصي الأرض لتلقي بمحاضراتها الفريدة. وشعرت دافينا بالحيرة والارتباك وقد أدركت بأنه لم يجب ولا عن أي سؤال طرحته عليه ولم يبدد أي شك كان يراودها، فقالت فجأة: «اذهب واخلد إلى النوم، فأنت بحاجة للراحة.»

أحنى رأسه موافقاً على اقتراحها ثم قال: «هلا تكرمت وطلبت شيئاً لايمي لتأكله؟ أما بالنسبة الينا، فيمكننا أن ننزل إلى مطعم الفندق لاحقاً.»

«سأطلب لنا جميعاً الطعام، كما انه لا يبدو عليك العجلة في أن تعود إلى الوطن سريعاً.»

«هذا صحيح، أيتها الآمرة والناهية.» ثم توجه إلى الغرفة المقابلة وقبل أن يدخلها قال: «اسمعي، اطلب منك أن لا تشعري بالخجل من تصرفاتك فأنت امرأة خالية من العيوب وتعرفين كيف تُسيّرين أمورك كافة.»

«أعرف ذلك.»

«وأطلب منك أيضاً أن لا تشعري بالخوف.»

«أنا لا أشعر بالخوف!»

«إذاً افعلي ما يطيب لك فعله واعلني أمام الجميع...»

قاطعته بحدة قائلة: «لن أعلن شيئاً لأحد.»

ابتسم بهزء ودخل الغرفة ثم أقفل الباب وراءه.

صرخت بحدة: «كما انني لست كما وصفتني بالآمرة والناهية!»

شعرت بالحزن واليأس وبأنها لم تعد تستطيع التحكم بحياتها، وتساءلت هل يا ترى كذب عليها بخصوص سفره في القطار؟ لكن لماذا لم تسأله وتلحّ عليه بالاجابة بصدق؟

توجهت إلى طاولة في الغرفة وفتحت الجارور لتتناول

منه كتيباً خاصاً بالخدمات، ثم اتصلت بالمسؤولين لتطلب منهم وجبة عشاء لايمي وشيئاً خفيفاً لها ولجويل، وعندما انتهت من ذلك عادت لايمي لتنظر في أمرها.

أنهت دافينا طعامها بسرعة، وتركت ايمي تتناول طعامها على مهل، وعندما انتهت قالت بابتهاج: «لقد أكلت كل شيء.»

ابتسمت دافينا وقالت: «حسناً فعلت، اعتقد انك كنت جائعة جداً.»

أجابت الصغيرة موافقة: «نعم، أريد الآن أن أتأرجح.»

«تتأرجحين؟ لا اعتقد انه هناك ارجوحة يا صغيرتي. ما رأيك لو نتنزه سيراً على الأقدام؟» قالت ذلك ومع انها كانت تشعر بالتعب.

«نتنزه.» وافقتها ايمي على الفور، انها لا تشعر بالتعب بعد ان نامت طويلاً أثناء رحلتهما في السيارة. حملت دافينا مفتاح الغرفة وخرجت منها تمسك بيد ايمي إلى خارج الفندق ليتعرفا على القرية القريبة، واشترت لها المثلجات بينما كانتا تتفرجان على المحلات القليلة. ثم عادتا إلى الفندق وايمي تثرثر بسعادة عن يومها المليء بالأحداث.

قالت ايمي بابتهاج: «اريد ان استحم الآن.»

«تريدين الاستحمام؟»

«نعم، أريد أن ألعب بفقاقيع الصابون.»

قالت دافينا: «آه، نعم.» وفكرت كم انها تشبه والدها والذي يعرف ما يريده ويتوقع أن يناله بسرعة. أخذت الصغيرة تجري بمرح نحو الحمام، فلحقتها دافينا مبتسمة وساعدتها على خلع ثيابها، ثم أخذت تملأ المغطس بالماء

www.elromancia.com

والصابون كما أرادت ايمي، ولتطمئن أكثر، فحصت المياه بمرفق يدها، لكن ذلك لم يطمئنها، ففحصتها بمرفق يدها الأخرى وقد خشيت أن تحرقها المياه الساخنة، وكانت ايمي تراقبها باهتمام وكأنها أدركت بأن ما تفعله هو في غاية الأهمية.

وعندما رضيت دافينا عن حرارة المياه، ساعدت ايمي بالنزول إلى المغطس.

ثم قالت لها: «هل يعجبك ذلك؟»

ابتهجت الصغيرة وقالت: «ايمي تلهو بفقاقيع الصابون، ايمي تضحك مسرورة.»

أسعدتها فرحة ايمي وقالت: «نعم. ايمي تضحك مسرورة.» ثم أخذت تفرك جسدها بلطف، ولعبتا برش المياه على بعضهما بمرح. وبعد ان مرت فترة من الوقت، رفضت ايمي أن تخرج من المغطس.

فحذرتها دافينا قائلة: «لكنك ستصابين بالبرد.»

وافقتها دون أن تشعر بالقلق: «البرد.»

«كما انه حان وقت النوم.»

«وقت النوم.» وافقتها لكنها تابعت تلهو بفقاقيع الصابون.

«ايمي... انك قرد صغير.»

ضحكت ايمي ثم أخذت تصرخ محتجة عندما انتشلتها دافينا من المياه ولفتها بمنشفة وقالت بعزم: «هيا إلى النوم.»

حملتها إلى السرير، ثم فتحت حقيبتها لتخرج منها ثوب منامتها، ولكنها وبينما كانت تفعل ذلك، نزلت ايمي من

السرير وأخذت تركض في الغرفة هرباً منها، فلحقت بها دافينا وألبستها ثوب منامتها بالقوة وشعرت بعد ذلك بالارهاق الشديد.

«أبي.»

«أبوك نائم.»

«فهمت.»

حدقت دافينا بوجه الطفلة ثم قالت: «عليك أن تلتزمي الهدوء كي لا يستيقظ.»

«كي لا يستيقظ.» وافقت كعادتها بسرعة. ثم مشت على رؤوس أصابعها وفتحت باب الغرفة التي ينام فيها جويل، فابتسمت قائلة: «أبي نائم.»

«نعم.»

تقدمت إلى السرير بهدوء ثم قبلته على خده فتحرك وتمتم بشيء غير مفهوم. عادت ايمي بعد ذلك إلى دافينا وابتسمت لها ثم صعدت إلى السرير وقالت: «أريد أن أسمع قصة.»

غطت دافينا الصغيرة بالغطاء متسائلة أما من نهاية لذلك، وبدأت تقول: «في غابر الزمان...»

«اقرئيها.»

«ليس معي كتاب.»

كررت ايمي بعزم: «اقرئيها.»

فقالت دافينا ملحة: «أرجوك.»

«أرجوك.»

تنهدت دافينا بيأس وتوجهت إلى الطاولة وفتحت الجارور وفتشت بين موجوداته عن أي كتاب يناسب طفلة

www.elromancia.com

في عمرها، إلى أن وجدت كتاباً يحكي عن العصافير وباللغة الفرنسية، لكنه مليء بالصور الملونة. فحملته وعادت اليها وجلست إلى جانبها.

وعندما فتحت الصفحة الأولى سألتها ايمي: «ما هذا؟»

«اخبريني أنت.»

«بطة، كواك، كواك.» قلدت ايمي صوت البطة بمرح وكأن في الأمر نكتة، لكن ربما انه كذلك، ربما كانت تلهو بمثل هذا الشيء مع والديها.

ثم قلبت لها صفحات الكتاب المليء بصور طير النورس والبجع، وحتى الطيور الصغيرة المتنوعة التي تعيش في الحدائق، إلى أن وصلوا إلى الطيور المفترسة كالنسر والصقر وغيرها فسألتها ببراءة وهي تشير إلى أحد النسور: «ما اسمه؟»

«ارني.»

وافقتها ايمي بسرعة: «ارني.»

«وهذا اسمه كلارنس.» أشارت دافينا إلى نسر آخر.

ثم أشارت ايمي إلى نسر في أعلى صفحة الكتاب، فقالت لها دافينا: «هذه عمتي ميلورد.» فحولت ايمي اصبعها إلى نسر آخر، وأجابتها دافينا بجلد وصبر: «هذا عمي جون... وذاك بيسي.»

«بيسي، اقرأي لي عنه.»

وبعد ان منحت دافينا الأسماء لجميع الطيور في هذا الكتاب، بدأت ايمي تشعر بالنعاس، فقبلتها دافينا بحنو، وأقفلت الكتاب ثم تنفست الصعداء، وتوجهت إلى الحمام لتستحم.

ارتدت بعد ذلك ثياب النوم ونظرت من النافذة إلى الحديقة البديعة للفندق، فرأت شخصين يتجولان فيها ويتأملان أصناف الورد بإعجاب، انها ورود فريدة لم يسبق أن زرعتها في حديقة منزلها. ثم قالت في نفسها، لا بد انهما سائحان يتمشيان قليلاً قبل تناول العشاء. تنهدت متعبة وشعرت بالاعياء، ثم توجهت إلى السرير مع انها كانت ما زالت الساعة التاسعة، والوقت مبكر للذهاب إلى النوم، وشعرت كونها في هذه الحالة الشديدة من التعب، بأنها لن تجد للنوم سبيلاً وبأن أفكارها المشوشة لن تتركها كما هي الحالة في كل ليلة.

تذكرت انه ينبغي عليها الاتصال بمايكل ناشر كتبها، لتقول له بأنها ستتأخر ولن تتمكن من الوصول في الوقت المحدد، كما انه ولا شك في ذلك، يريد أن يعرف كيف جرت معها الأمور في رحلتها وكيف تدبرت أمرها، لكنها لم تكن تشعر برغبة في التحدث إليه ولتوافيه بالشرح الطويل والممل. فقررت أن تطالع في أحد الكتب التي وجدتها في دُرج الطاولة، ثم جلست على الكنبة المريحة، ولكن لا لتقرأ، بل لتسمح لأفكارها بالانطلاق. انه من الأفضل لها أن يبقى نائماً، ولكن هل هي حقاً تفضل ذلك؟ وضعت الكتاب جانباً وتوجهت إلى السرير على أمل أن تجري الأمور بطريقة أفضل في اليوم التالي.

لكنها سمعت طرقاً على باب غرفتها، فنهضت من السرير وقبل أن تفتح الباب سألت: «هل هذا أنت يا جويل.»

فتمتم قائلاً: «آسف، لم أقصد ازعاجك، انما أردت أن أتأكد بأن ايمي بخير.»

«نعم، انها بخير.»

«حسناً، يمكنك أن تعودي إلى النوم.»

فعلت ما أشار به عليها أن تفعله، ولكنها لم تستطع النوم طوال ساعات الليل الطويل وبقيت تتقلب في السرير حتى بدأت الشمس ترسل خطوطها الذهبية داخل الغرفة، ثم قامت من السرير وارتدت ملابسها على عجلة وخرجت من الغرفة لتجده في الممر يتطلع من النافذة، فسألته بهدوء: «كم الساعة الآن؟»

أجابها دون أن يندهش لظهورها المفاجيء: «انها السادسة.»

«كيف تشعر؟»

«لست بخير، ولقد طلبت باحضار القهوة.»

«هل طلبت الفطور أيضاً؟ لقد طلبت لك نوعاً من الطعام ليلة البارحة، ولكنك...»

«لا لم أطلب.»

بدأت تقول وقد شعرت بالقلق عليه: «ولكن يجب أن تأكل...»

فقاطعها قائلاً: «لا تقولي شيئاً.» ثم التفت نحوها، فتنهدت دافينا وقالت: «آه، يا جويل، ان وجهك شاحب وضعيف.»

«قولي شيئاً لا أعرفه.» قال ذلك بشرود بينما كان يحدق في وجهها، ثم قال لها باهتمام: «كان عليك أن تلازمي السرير.»

«نعم.» وجاء صوتها مضطرب ومتردد. ثم تابعت: «كذلك أنت، انك تبدو مريض جداً.»

«انني بألف خير. أنا ذاهب لأستحم، أدخلي الخادم عندما يقرع الباب ويأتي بالقهوة.» ثم توجه بتثاقل إلى غرفته.

قالت دافينا باعياء: «حسناً.» ثم رمت بنفسها على احدى المقاعد المريحة تنتظر مجيء الخادم بالقهوة. فقالت كعادتها تكلم نفسها: انك تلعبين بالنار يا دافينا! انك تريدينه بينما هو يرفضك ولا يريدك! ولكنها وبالرغم من أنها كانت تدرك وتعي ذلك، كانت تشعر بسعادة لا تضاهيها سعادة، خاصة ان الظروف سمحت لهما باللقاء مجدداً. وانتشلها من أفكارها المتضاربة، قرع خفيف على الباب، فتوجهت لتفتحه، لتجد الخادم حاملاً صينية القهوة، فأشارت له بأن يضعها على الطاولة، وخجلت منه لأنها لم تكن تحمل العملة الفرنسية في حقيبتها لتقدم له الإكرامية، وكأن الخادم أدرك ذلك، ابتسم لها وخرج من الغرفة بهدوء.

سكبت لنفسها فنجاناً من القهوة وهي تشعر بالضعف الشديد وهي التي لم تذق طعماً للنوم طوال الليلة الماضية. وأخذت ترشف القهوة آملة منها أن تعيد اليها نشاطها وحيويتها. ظهر جويل وكان قد حلق ذقنه وارتدى ملابسه فبادرها بالقول فوراً: «اسكبي لي فنجاناً من القهوة، ولا تضيفي اليها السكر من فضلك.»

فعلت ما طلبه منها ثم قدمت له الفنجان بيد مرتجفة وسألته: «هل وصفت لك الطبيبة شيئاً للجرح الذي في وجهك؟»

«نعم، مرهم لونه أصفر وهو على الطاولة في غرفتي.» ثم جلس على المقعد المقابل لها وحمل فنجان

القهوة بيده غير المصابة وسألها: «هل نامت ايمي دون عناء؟»

«نعم.»

«شكراً لك.»

«على الرحب والسعة.»

ابتسم وقال: «هل أنت خائفة مني؟»

«لا، انما قلقة عليك... لماذا تنظر إليّ بهذا الشكل كأنك لا تصدقني! فأنت لا يمكنك أن تعرف ما أفكر وأشعر به!»

«آه، لا بل يمكنني، فلو كان لا يمكنني حقاً ذلك، لكنت في حالة غضب شديد معتقداً بأنك تسخرين مني عن تعمد.»

«حسناً، فأنا لست كذلك!»

وافقها على الفور: «أعرف، ولكنني أراك مرتبكة فلِمَ لا تذهبين للاطمئنان على ايمي؟»

نهضت بسرعة لتتجه إلى غرفة ايمي وكأن حملاً ثقيلاً أزيل عن صدرها، فوجدت الصغيرة ما زالت تغط في نوم هادىء، وشعرت بالحاح لتوقظها من سباتها ولتستعملها كدرع واقٍ لها. فهتف شيء في داخلها يقول مؤنباً: لا تكوني سخيفة يا دافينا! انه لا يريدك فلماذا تخشينه؟ لقد سمعته يقول لك ذلك بنفسه! لا، لقد قال فقط بأنه لن يلاحقني بعد ذلك!

عادت إلى حيث تركته فوجدته لا يزال على حاله كما فارقته وقد أغمض عينيه وفنجان القهوة في يده.

فسألته: «أين ذلك المرهم؟»

أجابها دون أن يحرك ساكناً: «سبق وقلت لك انه على الطاولة في غرفتي.»

توجهت إلى غرفته وجاءت بالمرهم، ولم تتمكن من قراءة كيفية استعماله لأنها كتبت باللغة الفرنسية التي لا تفقه منها كلمة. وجدت نفسها مجبرة على طرح هذا السؤال: «كيف هي طريقة الاستعمال؟»

تشدّق بالكلام وقال: «ادهني الكمية التي يتطلبه هذا الجرح.»

فأعطته المرهم قائلة: «هل وصل الماء إلى الجرح وأنت تستحم؟»

«لا، وهل يبدو عليّ الجهل التام؟ والآن احضري لي مرآة صغيرة.»

توجهت إلى طرف الغرفة حيث علّقت مرآة صغيرة الحجم على الحائط وعادت بها اليه، لكنها بقيت ممسكة بها عالياً أمام وجهه، ليتمكن من دهن المرهم على الجرح المصاب.

ثم قال مغيراً رأيه: «لا اعتقد انني بحاجة اليه...»

قاطعته بالحاح: «لا بل أنت بحاجة إليه! فلا تتصرف كالأطفال، هيا ادهنه.»

أجابها ساخراً: «لقد أصبحت شجاعة فجأة، طبعاً فمن أين لك أن تشعري بالآلام التي أشعر بها؟»

«لم يجبرك أحد أن تلعب دور البطل في ذلك الوقت! على كلٍ، من يمارس مثلك رياضة القفز فوق الحواجز يمكنه أن يتحمل مثل هذه الآلام!»

فصحح قولها قائلاً: «أنا لا أمارسها، انما قمت بها في حفلة خيرية للاحسان وذلك لمرتين فقط لا غير، كما وانها أخف وطأة من الألم الذي أشعر به الآن!» ثم تابع بهدوء وكأنه انتبه لشيء ما: «بالمناسبة، كيف عرفت بأنني مارست

رياضة القفز فوق الحواجز؟ اعتقدت ان ما أقوم به لا يثير اهتمامك؟»

«بالطبع لا يثير اهتمامي، لكنني قرأت ذلك في احدى الصحف... كيف تشعر الآن؟»

أجابها: «بخير.»

«تبدو كالمهرج.»

«جيد، سأنزل لتناول الفطور في مطعم الفندق وأنا أقفز في الهواء.»

ابتسمت ثم سألته: «شيء مثير فعلاً، وكيف حال ذراعك الآن؟»

«انه يؤلمني، فلا تحاولي أن تقولي لي إنه كان يجب علي أن أبقي الضمادة، لأنني قد أضربك.»

«افعل ذلك، ولكن ليكن في علمك بأنني سأرد لك الضربة بالمثل.» أنذرته بذلك مع انها كانت تعلم جيداً بأنه ليس من صنف الرجال الذين يفعلون هكذا مع المرأة، حتى ولو كان في قمة غضبه. وتابعت تقول: «يجب أن ترى طبيباً.»

قال: «سأفعل ذلك متى عدت إلى الوطن.» ثم وضع المرهم على الطاولة.

ونظر اليها مفكراً وتابع يقول: «ما بالك يا دافينا. أراك لا تعرفين ما تريدينه بالضبط، أو ربما تفضلين الهروب من الذي تريدينه، فأنا لا أفهمك.»

«أنا لا أريد أي شيء.»

«دائماً مشوشة الفكر، فهل ذلك بسبب ما كان قد أصابك مع بول؟»

خفضت نظرها إلى الأرض ورفضت أن تجيب على سؤاله.

ولما التزمت الصمت قال بتأسف ساخر: «مسكينة يا دافينا.»

انتفضت وكأن كرامتها لا تسمح لها بأن يكلمها بهذا الشكل وقالت: «لا، لست مسكينة.»

«هل ستخبرين مايكل عن لقائنا من جديد؟»

اجابته: «ليس هناك ما يستأهل ذلك. واسمع جيداً، انني فقط...»

قاطعها قائلاً: «يا لها من كلمة مضحكة هي، فقط، أليس كذلك؟ فقط كلمة مفيدة تستخدم في كل الظروف.»

وافقته على الفور: «نعم، سأتركك الآن لأرى إذا كانت ايمي قد استفاقت من نومها.»

وعندما حاولت أن تتوجه إلى غرفة ايمي، فُتح الباب فجأة لتظهر منه ايمي الصغيرة وهي تشعّ اشراقة وحيوية وقد احتضنت لعبتها.

ثم قالت بسعادة: «اعذراني، انني جائعة، فأنا لم أشرب الحليب!»

هتفت لها دافينا وقالت: «آه يا ايمي!» ثم اقتربت منها وتابعت تقول: «هل استمتعت بنوم هادىء؟»

تفاجأت الصغيرة من هذا السؤال وكأنها لا تستطيع أن تتصور لماذا يُطرح مثل هذا السؤال عليها، ثم أسرعت إلى والدها لتقف إلى جانبه، وقالت: «هل أنت أحسن حالاً يا أبي؟»

«نعم. انني أحسن حالاً.»

«وجهك أصفر.»

«نعم يا عزيزتي، انه المرهم الأصفر.»

ابتعدت دافينا عنهما إلى النافذة لتنظر إلى المجهول

مفكرة، انها تود البقاء معه ومع هذه الصغيرة التي تميل اليها بقوة، ولكن الذي تخشاه هو أن تتأذى مشاعرها مرة أخرى، لأنها تدرك جيداً بأنه لا يريدها ولا يشعر نحوها بأية ذرة من العاطفة. لذا، من الأفضل لها أن تجعل لكل ما يجري حداً ونهاية وأن لا تخاطر بنفسها مرة أخرى، فلديها الفرص العديدة ولا بد من أن تنال فرصتها أخيراً.

نادى جويل عليها بلطف: «دافينا؟»

تفاجأت وأدركت انها ما زالت معهما في نفس الغرفة، فتنهدت وتقدمت منهما.

سألها جويل: «هل تشعرين بالجوع؟»

«نعم.»

اقترح عليها قائلاً: «حسناً، هل تفضلين تناول الفطور في المطعم أم هنا؟»

«في المطعم طبعاً.»

استقبلهم في المطعم نفس الرجل الذي رحب بهم عند وصولهم ليلة البارحة، ولاحظت دافينا من الاشارة التي فوق سترته القرمزية بأن اسمه هنري.

فشرح لهم سبب وجوده قائلاً: «ان عدد الموظفين قليل، لذا تجدونني في كل مكان. تفضلوا والحقوا بي.» ثم سار أمامهم إلى طاولة قرب النافذة، وتابع يقول: «كما ترون، لا زبائن غيركم هنا، لذا سوف تنالون مني اهتماماً خاصاً.» ثم سحب الكرسي لدافينا وساعد ايمي على الجلوس. وسأل: «تريدان القهوة؟»

نظر جويل إلى دافينا ليأخذ رأيها، فأومأت برأسها

موافقة، ثم حوّل نظره إلى ايمي وسألها: «ايمي. ماذا تريدين، العصير أو الحليب؟»

«العصير.»

«قولي من فضلك.»

«من فضلك.»

انحنى الرجل باحترام ثم وجه انتباهه إلى ايمي وسألها: «هل ترغب الآنسة بوجبة فطور كاملة؟»

نظرت ايمي اليه متسائلة بحيرة وأجابت بثبات: «لا، شكراً لك، فأنا محمية.»

تفاجأ الجميع بجوابها ثم استرسلوا بالضحك خاصة جويل، فحدقت به دافينا بوجه هادىء، انها لم تره مرة يضحك كهذه المرة، بابتهاج وسعادة مطلقة. وفي هذه اللحظات من المودة والألفة، شعرت دافينا بأنه لو طلب منها القمر لطارت وأحضرته له.

وقال جويل بعد ان هدأ من نوبة الضحك: «لا بد وانها سمعت ذلك من سيليا لأنها محمية في كل الأوقات. آه، يا صغيرتي كم أحبك.»

أشرقت ايمي بسعادة وهي تشعر بمحبة كبيرة لوالدها.

نظر جويل اليها بمرح وقال: «ما الذي ترغبينه؟»

فأجابت الصغيرة وهي تقهقه وكأنها قررت أن تتابع اعطاء نكاتها: «الديدان، هل تسمح لي بذلك من فضلك؟»

أظهر الرجل لها اهتماماً وتقديراً وقال لها بجدية وكأنه يوافقها على ما تريده: «أتفضلها الآنسة مشويّة أم مقلية؟»

هتفت ايمي بسعادة: «مقلية من فضلك.»

«سيدي، سيدتي.»

www.elromancia.com

تمتمت دافينا ضاحكة: «كرواسان لي.» بينما كان جويل لا يزال ينظر إلى ابنته بعينين تشعان حناناً ومحبة.

سأل الرجل ايمي: وهل ترغب الآنسة أن تختار الديدان بنفسها؟» فأومأت له برأسها موافقة ولحقت به إلى طاولة وضعت عليها أصنافاً من فطور الصباح، وطبعاً ليس الديدان.

قالت دافينا:«انها طفلة رائعة.» وهي تراقب كيفية اختيارها للطعام الموجود على الطاولة.

«نعم.» وافقها جويل بوجه مبتهج مثلها تماماً، وعندما عادا بطبق زيّنه الرجل لايمي على شكل وجه، النقانق للفم، والفطر للعينين والأنف، والبيض المخفوق للشعر، ابتسم جويل للرجل بامتنان.

«شكراً لك.»

استنكر قائلاً: «لا، الشكر لكم، لأنه أفضل يوم مرح قضيته منذ اسبوع!»

ثم أحضر لهما بعد ذلك القهوة والكرواسان، وخيّم على الجميع جو من الألفة والسعادة، فتكلموا وضحكوا كأصدقاء قدامى.

شرحت ايمي لهما اعتقاداً منها بأنهما لم يفهما النكتة: «ان ما أتناوله ليس حقيقة بالديدان.»

وافقها جويل بمحبة: «لا، انها ليست كذلك بالطبع.» وابتسما لبعضهما بألفة ثم تحولا بابتسامتهما إلى دافينا لتشاركهما بما يشعران به. وكان ذلك بمثابة لحظات ثمينة لتحفظها كذكرى في قلبها دون أن تمحيها الأيام.

وباقتراب الساعة العاشرة كانوا جميعهم في السيارة،

فنظرت دافينا إلى الخارطة وسألت وهي تشعر الآن أكثر ارتياحاً وسعادة: «هل نأخذ طريق ديابي؟»

أجابها باقتضاب: «لا بل طريق كاين.»

«كاين؟ لكن طريق ديابي أسهل.»

كرر بعناد: «قلت كاين.»

احتارت للوهلة الأولى بأمرها، ثم حركت كتفيها دون مبالاة وكأن الأمر لا يهمها، مع ان الطريق التي اختارها، ليست الطريق الأسهل، وقالت: «أنت الربان على أية حال.»

«نعم.»

لم تدرك معنى لتصرفه هذا، ولم تحاول مناقشته في اختياره لتلك الطريق في الوقت نفسه، فقررت أن تصمت وتركز اهتمامها على الطريق التي أمامها. ولكنه ظل هناك سؤال يتردد في رأسها لم تجد له أي جواب يريحها، وهو هل انه يتلاعب بمشاعرها ويرغب بالانتقام منها لأنها تخلت عنه في السابق؟ على كلٍ، لقد كادا أن يفترقا، فهذه الليلة سيستقلا المركب وغداً تصل إلى وطنها. فشعرت بأسى وألم في قلبها من الغد القريب الذي سيفرقهما عن بعضهما، ليتها لم تلتقِ به مجدداً لأنها كانت تعلم جيداً بأن ذلك سيجدد الألم في نفسها، الألم الذي حاولت طوال الأربع سنوات المنصرمة، أن تداويه بشتى الطرق، فتنهدت بأسى وهي تعيد بذاكرتها ثرثرته اللطيفة والمضحكة مع ابنته ايمي وتساءلت كيف ستتمكن من نسيان كل ذلك يا ترى؟ انها ومنذ اسبوع مضى كانت امرأة واثقة من نفسها وقادرة على تحمل كافة متطلبات حياتها، بينما الآن، لا تشعر سوى بأنها انسانة محطمة ومهزومة بينما هو لا يشعر بشيء من الذي

تشعر به بالذات. وكم تمنت لو يمكنها الزواج منه حتى تجعل من هذه الطفلة التي تعلقت بها قلباً وروحاً، ابنتها.

لاحظت وهي في وسط تأملاتها تلك بأنه ينظر إلى الساعة في يده، فسألته: «هل تريدني أن أزيد السرعة؟»

«لا، لا. ابقي على سرعتك، فلا داعي للعجلة.»

لا داعي للعجلة؟ هل لأنه مستمتع برفقتها يا ترى؟ أم لأنه يستمتع بالمشاهد الطبيعية الخلابة؟ تساءلت وهي تشعر بانزعاج شديد من نفسها، لأنها ومنذ زمن طويل لم تعد تشعر بتلك الانفعالات وكانت تقنع نفسها بأنها امرأة ناضجة وبأنه لا شيء غير ذلك يثير اهتمامها في هذه الحياة.

توقفا مرتين، مرة لتناول طعام الغداء، ومرة للعشاء في فلير، إلى أن وصلوا أخيراً إلى كاين في وقت متأخر من الليل ليجدوا أن المركب قد أبحر دونهم.

فقالت بانزعاج: «كان عليّ أن أزيد السرعة.»

«هذا لا يهم.»

«أحقاً ما تقول؟»

«قلت لا.»

نظرت اليه متسائلة وهمست: «لماذا؟»

«لأننا يمكننا أن نجد فندقاً، أليس كذلك؟»

«سنمضي ليلتنا هنا إذاً؟»

«نعم، هناك.» أجابها وهو يشير بيده إلى الفندق المقابل للمرفأ.

طأطأت برأسها موافقة وانطلقت بالسيارة إلى الفندق.

ثم قال: «سنأخذ جناحاً آخر، إذا كان ذلك متوفر.»

ماذا كان يقصد؟ هل لأن ذلك أسهل على ايمي؟ انه وعندما

يتكلم لا يفصح عما يريده بالضبط ولا يعطي أسباباً معينة، ولأنها قليلة الخبرة والتجارب لم تعرف كيف يمكنها التصرف، ولا تعرف فيما لو كانت تفكر بالأمور بأكثر من حجمها.

«جويل.»

«نعم.»

استدركت وقالت وهي توقف السيارة أمام الفندق: «لا شيء، لا شيء.» لكنها لم تتمكن من رؤية ابتسامته التي قد تلعب الحظ الطيب في حياتها.

لم يتمكنوا من الحصول على جناح، فاضطر جويل إلى حجز غرفتين، وبعد ان صعدوا إلى حيث الغرفتين قال لها جويل: «سأجري اتصالاً هاتفياً... هل يمكنك الانتباه إلى ايمي؟»

«نعم بالطبع.» أجابته على الفور دون أن تنظر اليه.

وبعد مضي بعض الوقت رجع ليجدها تضع ايمي الصغيرة في السرير بعطف وحنان. فأخذ يراقبهما باهتمام وتفكير عميق وقد استند بقامته المديدة إلى الحائط.

www.elromancia.com

الفصل الخامس

قال جويل بهدوء: «سأبقى إلى جانبها إلى ان تغفو وتنام، اذهبي انت واهتمي بشؤونك.»

«نعم.» وافقته دافينا على الفور، واسرعت إلى غرفتها بعد ان حملت حقيبة سفرها. اقفلت الباب واسندت ظهرها إليه لتطلق لافكارها العنان ولكن بتشوش تام. وطرأت على رأسها فكرة لم تفكر بها قبل الآن، وهي، هل انه سيصدقها اذا قالت له إنها ومنذ ان افترقا لم تتعرف بأحد غيره؟ لكنها سرعان ما انبت نفسها على هذه الفكرة السخيفة، فهو بالطبع لن يصدقها. وفي الواقع، لماذا تشغل رأسها في مثل هذه الأمور، خاصة وانه قد صرح لها وفي عدة مناسبات بأنه لا يريدها ولا يفكر بها، بينما هي لم تتوقف عن التفكير به منذ اليوم الذي ابتعدت عنه، وذلك بناء على رغبتها هي. فأخذت نفساً عميقاً كمحاولة لتهدئة اعصابها المضطربة، وقالت لنفسها، اذا طال بها المقام في هذه الغرفة فسوف يقرع الباب ويسألها ان كانت بخير، فالى متى ستبقى على هذا الحال من القلق والاضطراب؟ نظرت إلى نفسها في المرآة وقرأت اليأس والألم في عينيها، وترقرقت الدموع فيهما وكادت تنهمر. مسحت دموعها بيد مرتجفة واخذت تشد من عزيمتها وتستعيد رباطة جأشها، فهي لا تريد ان تظهر امامه بهذه الحالة اليائسة كي لا يسخر منها ويستهزء بها كعادته.

ثم خرجت من الغرفة وإلى الغرفة الأخرى، حيث وجدته يجلس على مقعد قرب السرير الذي نامت فيه ايمي الصغيرة، فتمتمت دون وعي وادراك منها: «سأنظف اسناني.» ثم تناولت حقيبة يدها التي في داخلها كل ادواتها الخاصة، وعادت إلى غرفتها متسائلة في نفسها، هل يا ترى لاحظ عليها الاضطراب والعصبية؟ وبخت نفسها كعادتها بينما اخذت تنظف اسنانها، فهي في السابعة والعشرين من عمرها ولم تعد تلك الفتاة المراهقة التي لا تعرف كيف تسيطر على تصرفاتها فتنجرف في تيار الانفعالات والشجون ولا تعرف كيف تتخلص منها. انتهت من تنظيف اسنانها ووضعت الفرشاة على رف المغسلة، ثم تماسكت واخذت نفساً عميقاً لتخرج من جديد من غرفتها.

«هل ايمي بخير؟» قالت ذلك بصوت مرتجف مع انها كانت تعلم بأن الصغيرة على مايرام، ولكن كان عليها ان تقول شيئاً ولم تجد غير ذلك لتقوله.

اومأ برأسه بالايجاب، ثم وقف ليذهب ويهتم بشؤونه هو الآخر، فجلست قرب ايمي وهي لا تفكر سوى به وباءت كل محاولاتها بالفشل، فهي لم تقدر ان تتماسك وتصبر إلى ان تصل إلى وطنها، وإلى منزلها بالذات. فهناك فقط، وليس في أي مكان آخر، يمكنها ان تنفعل وتذرف الدموع مستسلمة لليأس والحزن اللذين باتا رفيقا الدرب في حياتها.

نظرت إلى ايمي النائمة بهناء وسلام وقلبها يقطر دماً، فبقليل من الحظ، كادت ان تكون هذه الصغيرة ابنتها، ابنتها هي وليست ابنة سيليا. وبدافع العاطفة وغريزة الأمومة،

تمالكت نفسها كي لا تجلب الخوف إلى قلبها وبقيت تنظر إليها نظرات دافئة حنونة ولم تشعر كيف رفعت يدها لتلامس خدها الرقيق الناعم.

عاد جويل في تلك الاثناء إلى الغرفة دون ان تشعر دافينا به، ووقف يتأملها بعمق واهتمام، ثم تقدم من الجانب الآخر من السرير الذي تنام فيه ايمي ومد يده ليلامس يد دافينا التي كانت مازالت على خد ايمي، فقفزت مذعورة، انها لم تشعر بدخوله المفاجيء لانشغالها الكلي بايمي.

فقالت تحذره: «انتبه لذراعك يا جويل.»

«لا تقلقي.» ثم وبعد ان نظر إليها مطولاً، قال: «كيف يمكنك ان تنسي صداقتنا يا دافينا؟»

وجدت نفسها تجيبه دون تفكير: «وهل باعتقادك انني نسيت!»

فقال بلطف: «كنت طوال تلك المدة منذ ان افترقنا، افكر بك واحلم بأن التقي بك من جديد.»

اضطربت دافينا وقد ادركت ما يدور بينهما من حديث، احقاً ما تسمعه اذناها مما يقول جويل، جويل الذي لم تغب ذكراه يوماً عن افكارها. احتارت في امرها، هل تصدقه ام لا؟ خشيت ان يكون ساخراً من بمشاعرها وعواطفها كعادته، فقررت ان تتجاوب معه وتستمع إلى كلامه اكثر لربما تصل معه إلى نتيجة تريح افكارها وتفرح قلبها المضطرب المتعب. ثم سمعته يتابع برقة اكثر هذه المرة: «هل انك مازلت خائفة مني يا دافينا؟»

تحيرت اكثر في امرها ولم تدر بما تجيبه. انها لم تتأكد بعد من نواياه ولا من الذي يريده منها بالضبط.

وكأنه ادرك بالذي تعاني منه من تضارب في افكارها، تابع يقول: «وهل يمكنك ان تتصوري، كم كان من الصعب علي في هذين اليومين الماضيين بعد ان التقينا من جديد، وانا اجلس إلى جانبك دون ان اجرؤ حتى على التحدث معك، او كم كنت اتألم كلما حاولت ان اقترب منك وانت تبتعدين نافرة مني.» أصيب بالدهشة عندما وجد انها لم تعترض على ما قال وقد نظرت إليه بعينين متساءلتين.

ثم قالت: «لكنك قلت لي...»

فنظر في عينيها بعمق وقال: «لقد كذبت عليك... آه يا دافينا لقد مر وقت طويل.»

«نعم.»

«لكن اليوم لن اسمح ان يمر الوقت سدى.»

«نعم.»

«هل توافقيني على ذلك يا دافينا؟»

«نعم.»

«اريد ان اتأكد اكثر.»

«نعم، نعم اوافقك على ما تطلبه يا جويل.»

«فينا؟»

«ماذا؟»

«اطلب منك ان لا تخشي جانبي، فأنا لن اؤذيك كما اذاك بول، وعشت سنوات من القلق والعذاب هاربة مني.»

شعرت من نبرة صوته ومن اهتمامه الواضح على ملامح وجهه بأنه صادق لا يسخر منها كعادته، وهتف صوت في داخلها قائلاً لها: ثقي به انه لا يكذب.

ثم قالت بحماس: «لن اخشاك يا جويل.»

www.elromancia.com

ابتسم ابتسامة هادئة صافية، ثم تابع قائلاً بهدوء: «لطالما حلمت بهذه اللحظات، آه يا دافينا كم تاقت نفسي لألتقي بك مجدداً كونك امرأة جديرة بالاحترام والتقدير.»

تلاشت واختفت فجأة آلامها، لتحل مكانها سعادة ما بعدها سعادة، كيف لا وقد سمعته يقول بصوته بأنه كان يحلم بهذه اللحظات كما كانت هي نفسها. وتبادلا نظرات طويلة كانت بمثابة كلام عجز لسانهما عن النطق والتفوه به، وكأنهما يشكران الأقدار التي عاندتهما يوماً وفرقت بينهما، وقد ارادت بذلك ان تجعلهما يتأكدان اكثر من بعضهما ومن المشاعر الطيبة التي يحفظها الواحد للآخر.

سألته فجأة بشك: «هل انك حقاً افترقت عن سيليا؟»

قال: «نعم.» دون ان يضيف شيئاً آخر على ذلك.

لم تجادله، لأنها بدأت تصدق كل كلمة يقولها لها الآن.

ثم سألها باهتمام: «هل تشعرين بالتعب يا دافينا.»

«نعم.»

«هيا اذاً، اذهبي إلى غرفتك واستريحي.»

أوت إلى الفراش ولأول مرة شعرت بالسعادة تغمر حناياها واستسلمت بسرعة إلى نوم هادىء مليء بالاحلام الوافرة بالبهجة، ولم تستفق من نومها العميق الا عندما اخذت الشمس ترسل خيوطها الذهبية من النافذة، فاستقبلتها دافينا بابتسامة مشرقة، ثم ارتدت ملابسها دون ان تشعر بأن ايمي الصغيرة في سريرها تغط في نوم عميق، فدهشت واسرعت تستفهم عن الأمر من جويل.

فبادرها قائلاً قبل ان تتفوه بكلمة واحدة: «اعرف سبب دهشتك، فلا تقلقي.»

«لكن متى وكيف جاءت إلى سريري؟»

«لقد ذهبت في السادسة من هذا الصباح، بعد ان شعرت بي انهض من سريري، وقالت لي بأنها لا ترغب ان تنام بمفردها، لذا ذهبت إلى سريرك ونامت من جديد.»

«لم اشعر بها ابداً... ولكن ما الذي دعاك لتستفيق في الساعة السادسة؟»

«شعرت ببعض الألم في ذراعي ولم اتمكن من متابعة النوم اكثر، وايمي الصغيرة ترفض عادة ان تنام بمفردها.»

شعت عيناها بالعطف والحنان وهي تتصور كيف غادرت ايمي سريرها لتنضم اليها في سريرها هي.

ثم قال فجأة: «هناك بعض الأمور التي يجب ان نفكر بها.»

سألته بحيرة: «ماذا تقصد بكلامك؟ وما قد تكون هذه الأمور؟»

«هذا لا يهم، انما سأضطر إلى التكلم مع سيليا عندما اراها.»

سيليا؟ هل يعني سيحدث زوجته السابقة بأمرها؟ فغمرتها موجة من الغيرة والحسد، كيف لا، وهي انجبت له هذه الطفلة الرائعة؟ لكنها سرعان ما ابعدت هذه الافكار السوداء من رأسها دون ان تتمكن من حجب غمامة صغيرة سوداء تحجب عنها افق ومصير مستقبلها الذي سيجمعها مع جويل. فسألته بعد ذلك: «كم الساعة الآن؟»

«انها الثامنة.»

«الثامنة؟» ارتجفت بذعر، ثم امسكت نفسها وقالت: «لكن المركب سيبحر بعد نصف ساعة من الآن.»

www.elromancia.com

وافقها بتكاسل: «نعم، كان من المفروض ان يبحر بعد ساعة من الآن.»

«لكنه لن يبحر اليوم في الوقت المحدد، أليس كذلك؟»

«لا، سيتأخر اليوم حتى الساعة العاشرة بسبب بعض المشاكل في المرفأ الآخر.»

تنهدت دافينا ثم قالت: «لنتناول فطور الصباح اذاً.»

«نعم.»

وتبادلا النظرات وكل واحد منهما يبتسم للآخر.

فجأة تعالى صوت ايمي من الغرفة الأخرى وهي تقول: «ابي، لقد استفاقت ايمي.»

فتبادلا الابتسام لبعضهما مرة أخرى وهذه الصغيرة تعلن وبصوت عالٍ بأنها استفاقت من نومها.

تناولوا معاً فطور الصباح وحزموا امتعتهم، ثم استقلوا السيارة إلى المرفأ الذي لا يبعد كثيراً عن الفندق. لكنهم لم يجدوا المركب، على الأرجح انه سيأتي وقد تأكد جويل من ذلك عندما ذهب إلى العامل ليقطع التذاكر لهم، ثم قام باتصال هاتفي لم تدر دافينا لمن قد يكون ذلك الاتصال، حتى عندما سألته، ابتسم فقط دون ان يجيب. ثم وبدون سابق انذار، نادت احداهن باسم جويل.

التفتوا فرأوا امرأة نحيلة الجسم طويلة القامة، شعرها احمر، تتجه نحوهم، أو اذا صح التعبير نحو جويل. كانت تضحك بمرح عندما اصبحت بقربه، وبدا عليه الانزعاج وعدم الاكتراث بها، فابتسمت بخجل وحياء وابتعدت قليلاً عنه.

سألته بغباء: «هل تنتظر قدوم المركب.»

اومأ برأسه بالايجاب وقال بينما كان يبتعد عنها اكثر: «اعذريني الآن.»

ضحكت بعصبية وقالت: «اننا لن ننتظر المركب، بل سنذهب إلى الهافر.»

«جيد جداً.»

تلاشت ابتسامتها وابتعدت عنه تسرع إلى حيث كانوا اصدقاء لها ينتظرونها في سيارة خضراء، وتصورتها دافينا تقول لهم، لنغادر هذا المكان بأقصى سرعة، أو ربما قالت لهم وذلك حفاظاً على كرامتها كامرأة، بأنه اظهر سروراً كبيراً لرؤيتها في العاصمة الفرنسية.

ادار رأسه يلتفت إلى دافينا، وقد رفع احد حاجبيه كأنه يسألها عن رأيها، ولكنها لم تتفوه بكلمة واحدة.

فسألها بلطف: «هل تشعرين بالغيرة؟»

اجابت بصلابة وثبات: «لا.»

فتمتم وهو يبتسم بمكر: «انها معرفة قديمة.»

قالت وهي تهم بالمسير: «هذا ما يبدو، لكنها كانت بالنسبة لي انذاراً وتحذيراً لي منك في المستقبل.»

اجابها وهو يتبعها: «هل تشكين بكلامي؟ انها في الحقيقة لا ادري من تكون، ربما اكون قد التقيت بها صدفة في احدى الحفلات.»

قالت له: «كما وانني لمست فيك انك لا تحب السيدات المزعجات.»

«لا.»

تابعت كلامها بسخرية: «وذلك لأنك تحب ان تلاحق من تختاره انت بالذات.»

اجابها بنفاد صبر: «نعم دافينا، احب ان الاحق من اريد، كما فعلت معك بالتحديد، فلا تسمعيني كلاماً اكثر من ذلك لو سمحت.»

ثم امسك بيدها بينما كانت هي تمسك بيد ايمي وتوجهوا جميعاً إلى الأسواق القريبة بدلاً من البقاء هكذا في انتظار المركب. واخذ الانزعاج يفارقها تدريجياً. انه انزعاج غبي لا مبرر له، فلا بد وانه يعرف اشخاصاً عديدين، فإذا اظهرت الانزعاج والضيق في كل مرة يلتقي بواحدة، فانها حتماً ستصاب بالجنون، لذا فالافضل لها ان تتصرف بعقلانية وببرودة.

سألها بلطف: «هل انت افضل حالاً الآن؟» فأومأت له برأسها بالايجاب. ثم تابع يقول: «انني حقاً لا اذكر من قد تكون.»

فهل من المعقول ان يريحها هذا؟ ثم سألته بعذوبة ماكرة: «هل تعرف الكثيرات؟»

ضحك وقال: «نعم، قبيلة كاملة. فاذا كنت تنتظرين مني تبريراً ما، فاعلمي بانك لن تناليه مني. هيا الآن انسي الموضوع.» وادخلها إلى دكان اشترى لها منه عطراً فاخراً. فتساءلت هل فعل ذلك لأنها لم تغضب ولم تفتعل معه المشاكل لمعرفته بتلك المرأة؟ انها على اية حال، لم تكن تنتظر منه تبريراً يذكر. كما انه اشترى لايمي شريطاً ملوناً لشعرها الطويل، ثم ربطه بكل عناية واتقان، ورفعها بعد ذلك لتنظر إلى نفسها في المرآة فاظهرت اعجاباً شديداً بما شاهدته.

«ابدو جميلة.» قالت ذلك وعيناها لا تفارقان صورة وجهها الذي عكسته المرآة.

سألها بعد ان انزلها إلى الأرض: «ماذا تقولين في مثل هذه الظروف؟»

اجابته بأدب واحترام: «اقول، شكراً لك يا ابي.»

ثم التفت في الاتجاهين ليرى اين دافينا، فوجدها تنتظرهما وهي تبتسم ابتسامة حزينة.

فكأنها علمت لماذا كان ينظر إليها، قالت: «شكراً لك يا جويل.» وابتسمت ابتسامة واسعة، فلم يتمالك جويل نفسه من الضحك، لكنه لم يخبرها السبب لذلك.

ثم تابعوا المسير واشعة شمس ايار (مايو) تغمرهم بدفئها، بينما كانت ايمي تقف من وقت لآخر امام الواجهات الزجاجية للمحلات لتتأمل نفسها من جديد وهي تشعر بالفرح بالشريط الملون الذي ربط شعرها. اما دافينا التي توارى عنها الانزعاج، فكرت في نفسها، انه مهما فعل جويل أو قال، لن يغير شيئاً من الذي تشعر به تجاهه. فعادت اليها بهجتها واطمأن قلبها، ووجدت ان السماء اكثر زرقة والشمس اكثر دفئاً، حتى انها ارادت ان تقول له ذلك، وان تقول تلك الكلمة المحببة التي تجمع بين قلبين، لكنها تمالكت نفسها وهدأتها، فعليها ان لا تستبق الأمور، فقد لا يكون مستعد لسماعها بعد.

عادوا إلى المرفأ بعدما امضوا بعض الوقت ليجدوا ان المركب لم يصل بعد، فجلسوا في مطعم المرفأ ليتناولوا طعام الغداء منتظرين، وبعد ذلك تركت دافينا ايمي في رعاية واهتمام والدها وذهبت لتشتري كتاباً للاطفال، فقد تطلب منها ايمي ان تقرأ لها قصة خلال الرحلة على متن المركب. لكنها عندما عادت، وجدته يجلس على الكرسي

www.elromancia.com

مغمض العينين وقد سلط وجهه لأشعة الشمس الدافئة، بينما كانت ايمي تلهو بتراب الأعشاب.

فصاحت معترضة: «جويل، انها تأكل التراب!»

فتح احدى عينيه ونظر إلى ابنته وقال ببرودة شديدة: «ايمي، لا تأكلي التراب.»

سألته بانفعال شديد: «وهل تظن ان بكلامك هذا ستتوقف عما تفعله؟»

«انها بخير.»

«لكنها بدأت تتسخ!»

«ستنظف نفسها بعد ذلك. هل هناك اخبار جديدة، بخصوص المركب؟»

«لا.»

«كان بامكاننا ان نذهب بالسيارة إلى الهافر، ونستقل المركب من هناك، ولكن...»

ارتجفت وقد تذكرت ان صاحبة الشعر الاحمر قصدت الهافر، فقالت بهدوء كي لا تفقد اعصابها: «لا، شكراً لك، فأنا لا انزعج من الانتظار.»

بدا وجهه في البداية غير واضح الملامح، لكنه استرسل بعد ذلك بالضحك وقال: «آه!»

«تماماً.» جلست على الكرسي وطلبت فنجاناً آخر من القهوة، وشعرت بالكسل تماماً مثل جويل، فجميل احياناً ان يجلس المرء دون ان يقوم بأي عمل ويستسلم لأشعة الشمس الدافئة. فتنهدت وعادت تقول في نفسها، انها لا تشعر بالغيرة، بالطبع، لا، ثم حولت انتباهها إلى ايمي وابتسمت عندما وجدتها تبتعد عن التراب وتنفض ما علق

منه على ثيابها ويديها، ثم اسرعت لتقف امام والدها.

«اريد ان اتأرجح.»

«لا يوجد ارجوحة هنا.»

«بلى.»

«فتح إحدى عينيه ونظر إلى ايمي ليحول نظره إلى حيث كان يشير اصبعها الصغير.

«ارجوحة.»

تأفف وقال: «يا لاختيارك التعيس يا صغيرتي.»

فعرضت دافينا خدماتها قائلة: «سأخذها بنفسي اذا شئت.»

حول نظره اليها وقال: «هناك شخص آخر اختياره تعيس، ليست ايمي فقط.»

ضحكت لكلامه وتقبلت منه الفرنكات الفرنسية التي تناولها من جيب سترته، ثم مشت مع ايمي إلى المساحة التي اشارت اليها، واستمتعت باللهو هناك تماماً مثلها، لكنها لم تستطع ان تبعد عن رأسها صورة تلك المرأة بشعرها الأحمر والتي قال بأنه لا يتذكرها، هل سافرت معه في وقت من الاوقات واهتمت بشؤون ابنته اثناء عمله؟ أو هل ان ما قاله لها لم يكن سوى الحقيقة بأنه ربما التقى بها صدفة في احدى الحفلات؟ وتساءلت، هل يا ترى سيأتي يوم لا يتذكر فيه من تكون هي؟

تنهدت اخيراً بارتياح عندما رأت المركب آتياً من البعيد، فأخذت تقنع ايمي بانه يتوجب عليهما العودة بسرعة لأنهم سيجرون بالمركب.

وجدت جويل مازال على حاله كما تركته، يجلس باسترخاء يستمتع بأشعة الشمس، فاسرعت ايمي إليه

ورمت نفسها عليه ضاحكة. انزعج منها وفتح عينيه لينظر اليها بغضب، لكنها تجاهلت ذلك واخذت تخبره بمرح ما كان لها مع دافينا.

ثم قالت دافينا: «سأذهب لأرتب حالي.» وحملت حقيبة يدها وتوجهت إلى حمام السيدات التابع للمرفأ، وكعادتها كلمت نفسها بمشاكلها السخيفة.

ولكنها عندما عادت حيث تركت جويل وايمي، وجدت رجالاً آخرين مع عائلاتهم ولم تجد اي اثر لهما، احتارت في امرها واخذت تتلفت في كل الاتجاهات مشغولة البال مرتبكة. فتساءلت هل احب ان يتنزه مع ايمي في الاسواق مرة اخرى؟ ام التقى واحدة أخرى من صديقاته القدامى؟ كيف يختفي هكذا فجأة قبل وقت قليل من اقلاع المركب؟ ورأت الجميع ممن كانوا ينتظرون المركب، يتحركون في اتجاهه، فعضت على شفتها السفلى وهي لا تدري ماذا بقدرتها ان تفعل. انها لا تحب المفاجآت وتفضل الأمور التي يخطط المرء لاجلها، وكان من عادتها أيضاً، واذا كانت مرتبطة بموعد ما، ان تصل ابكر من الوقت المحدد، انها كانت تسبق الجميع وتصل قبلهم حتى ولو اضطرت للوقوف في الصف لقضاء حاجاتها.

ولكنها، مع انها كانت تعلم انه هناك متسع من الوقت قبل ان يبحر المركب، بقيت تشعر بالاضطراب والقلق.

«هناك.»

التفتت بدهشة ورأت سيدة تجلس إلى طاولة قريبة منها تبتسم لها وتشير بيدها نحو الفندق الذي تركوه منذ بضع ساعات قبل الآن.

«لقد اخذ الفتاة الصغيرة إلى هناك.»

«إلى هناك؟» كررت دافينا كلام السيدة بحدة، ثم استدركت قائلة: «آسفة.» وبالطبع ان السيدة لا تملك معلومات اكثر من تلك، خاصة ان جويل ليست من النوع الذي يعلم الآخرين بأموره. وتابعت تقول للسيدة: «شكراً لك على اية حال.»

وأمسكت بحقيبة يدها جيداً ووضعت نظارتيها الشمسية على عينيها ثم اسرعت الخطى باتجاه الفندق، واعطته العذر بأنه لا بد أنه نسي شيئاً في الفندق يخصه أو يخص ايمي.

وجدت في مكتب الاستعلامات في الفندق سيدة أخرى غير السيدة التي رأتها في الصباح لدى خروجهم، ان هذا الأمر لا يبشر بالخير، فتوجهت اليها دافينا تبتسم لها بوهن قائلة: «هل تتكلمين الانكليزية؟»

«نعم، بماذا يمكنني ان اخدمك؟»

«لقد خرجنا هذا الصباح، و...» بدأت تقول ثم توقفت فجأة فذلك قد يطيل الشرح عليها، فغيرت رأيها وقالت بالمقابل: «اعتقد ان رجلاً طويل القامة، وشعره داكن اللون، دخل إلى هذا الفندق مع فتاة صغيرة السن.»

«الغرفة رقم اربعة عشر.»

قالت متسائلة: «الغرفة رقم اربعة عشر؟» لكنهم لم يكونوا في هذه الغرفة، بل كانوا في الغرفتين رقم ثلاثة وعشرون واربعة وعشرون.

«نعم.» اكدت لها الموظفة، فقطبت دافينا حاجبيها وتوجهت إلى الغرفة رقم اربعة عشر، متسائلة عن السبب

الذي دعا جويل باتخاذ غرفة في هذا الفندق، خاصة في اللحظة التي عاد فيها المركب. لكن لماذا لم يترك لها اية رسالة قائلاً فيها إلى اين ذهب والسبب الذي دعاه لذلك؟ انها حقاً تشعر بأنها لا تدرك تصرفات الآخرين في بعض الأحيان.

كان باب الغرفة مفتوحاً، ولكنها توقفت فجأة عندما سمعت صوتاً مختلفاً يأتي منها.

انه صوت امرأة وكانت تقول بغضب: «انت غبي! الا تتعلم ابداً؟»

استنكر جويل قولها وأجاب: «من الواضح بأنني لست كذلك!»

«وماذا برأيك ستقول هيلين؟»

اجاب جويل: «لا يهمني بتاتاً ما قد تقوله هيلين.»

«لكن يهمني انا! انك تعلم جيداً ما تريده منك، فهل ستوافق؟ آه، لا، ربما ظن جويل جيلمان العظيم بأنه يعرف اكثر من غيره!»

«انني فعلاً اعرف...»

قاطعته بغضب: «اخرس! ستكون في منتهى الثورة والغضب!»

اجابها بلهجة قاسية: «هذا ما قد حصل! كما انني لم اخطط له في السابق!»

«آه، وهل تعتقد ان ذلك سيهدىء من ثورتها؟ على اية حال، كيف شكل تلك المرأة؟ هل هي جميلة؟ نعم، من المؤكد انها جميلة.» ثم تمتمت بشيء من القرف: «انهن دائماً هكذا، اليس كذلك؟»

«انه امر طبيعي، لكن هل هذا يهم؟»

«لا، لكنني آمل ان تعرف عنك اكثر.»

سمعته دافينا يتنهد قائلاً: «انها طيبة وهادئة، وهي على الأقل تتمتع بيدين ناعمتين!»

«لا تحتاج يداي لأن تكونا ناعمتان! لكنني اسألك، ما الذي يجبرك على اختيار الفتيات البريئات؟ فبامكانك كل حين ان تختار الفتيات القويات؟ ولماذا ولو لمرة في حياتك، لا تتوقف وتفكر بعقلانية اكثر؟»

البريئات؟ القويات؟ اخذت الشكوك تتضارب في رأس دافينا، فدفعت الباب وقد تأكدت بأنها هي المعنية بهذا الكلام.

فالتفتا معاً وقد تفاجآ بدخولها، وعادت بذاكرتها الوراء، وتذكرت بول. ورأت بعين الخيال والذكريات بأنهما كانا بول خطيبها السابق مع جيني التي تركها من اجلها، ان التاريخ يعيد نفسه، فكرت دافينا بمرارة والألم يعصر قلبها عصراً.

وقالت المرأة بجرأة: «اننا نستمتع بأحلى الأوقات.»

اسرع جويل يقول ساخراً: «رائع، ارجوك ان لا تقفزي إلى النتائج غير الحميدة!»

اجابته دافينا مؤيدة: «لا، فمن المؤكد انني لست من يقفز إلى النتائج غير الحميدة بل انت، كاين، أليس كذلك؟ فضلت ان نأخذ طريق كاين، هل تذكر؟»

انذرها قائلاً: «دافينا...»

قاطعته ولم تدعه يكمل كلامه، قائلة: «وما الذي سأحصل عليه الآن؟ الجواهر أو انه من عوائدك دائماً ان تقدم العطر

الفاخر؟» توقفت قليلاً لتلتقط انفاسها المتلاحقة وتابعت تسأله: «هل هناك امرأة تنتظرك في كل مرفأ؟»

تدخلت هنا السيدة لتقول بقسوة: «توقفي عند حدك، فأنا...»

قاطعتها دافينا وقالت وهي تخطو خطوة إلى الداخل: «لا، توقفي انت.» كانت ترتجف بشدة من الغضب والانفعال وشعرت بالأذى والذل، لدرجة انها لم تفكر بالكلام الذي تابعت تقوله: «انا المغفلة هنا، وسأقول ما يطيب لي قوله.» ثم حولت نظرها إلى جويل قائلة بحدة: «وتتركني دون اية رسالة منك، أو ربما تهيأ لك بأنني قد اعود قبل ان اشعر بغيابك؟»

«لا تكوني سا...»

«ساذجة؟ أنا؟» ثم عادت تحول انتباهها إلى السيدة مرة أخرى، فوجدتها اكبر منها سناً ربما في الثلاثينات، فعاد لسانها يسبق تفكيرها وهذه عادتها عندما تكون في حالة شديدة من الثورة والغضب، خاصة عندما تشعر بالخيانة، فقالت بصوت يتأجج غضباً: «آمل ان تكوني على علم بقوانين اللعبة مع جويل.»

قال جويل: «لا تكوني سخيفة، انها...»

صرخت تقاطعه: «لا يهمني من قد تكون، فأنا متأكدة بأنني لا ارغب بمعرفة اسمها! وبالمناسبة، اين ايمي المسكينة؟»

«دافينا...»

«لقد كنت تلاحقني عن تعمد منك، لترى وتتأكد بأنني قد اقع في شباكك، وانا ومن شدة غبائي، سهلت عليك الأمر لأنني صدقتك ولم اشك بكلمة اسمعتني اياها.»

تبدلت ملامح وجه جويل وتقدم منها والشرر يتطاير من عينيه قائلاً: «هل تصدقين ما يجري هنا فعلاً؟»

«نعم اصدق كل ما اراه امامي! وما عساني ان اصدق غير ذلك، خاصة عندما اجد...»

تابع ما توقفت عنده باستخفاف: «حبيبك؟»

شدّت على أسنانها وقالت: «انك لست كذلك، وكيف تكون هكذا عندما تستغل اول فرصة لغيابي؟»

«دافينا...»

«لا تناديني باسمي ايها...» توقفت لتتابع ساخرة: «وارجوك لا تقل لي بانك التقيت بها بمحض الصدفة!»

«لا، لن اقول شيئاً من هذا، لكنك ومنذ وصلت توجهين اتهاماتك الي، لذا علي انا ان اتهمك اتهامات بخصوص مايكل؟»

«اترك مايكل خارج هذا الموضوع، فهل نسيت بانك تابعت تلاحقني وبالرغم من معرفتك بأنني مخطوبة؟»

فاجابها مستهزئاً: «حقاً؟ وانت كنت الفتاة التي من الصعب الاقتراب منها، اليس كذلك؟»

«نعم لقد صعب عليك الأمر معي في البداية، لكنني قبلت بك بعد ان خدعتني وجعلتني اراك بانك رجل نبيل جدير بالثقة والاحترام.»

قال بوحشية دون ان يرأف بمشاعرها: لأنه تصور لي بأنك ستتخلين عنه.»

«حسناً، ليكن بعلمك بأنني لن اتخلى عنه!»

«اذاً وفي هذه الحالة، اعتقد بأنك امرأة غشاشة، أو ربما اردت معاقبتي على الذي مضى؟»

«بالطبع، وهل كنت تتوقع غير ذلك؟ هل تريدني ان اتحمل الخيانة طوال حياتي دون اية محاولة للانتقام من الذي سببها لي؟»

«وهل كنت أنا بنظرك الضحية؟»

«ولِمَ لا؟ على العموم لماذا تهتم لهذا الأمر وتأخذه بهذه الجدية، فأنت وفي كل الاحوال ومهما كانت نية المرأة، تفضل ان تبقى قريباً منها، اليس كذلك؟»

استنكر قولها وقال بثبات: «لا.» وبدا عليه للحظة بأنه يرغب في ان يصفعها، لكنه تمالك نفسه ورسم ابتسامته المستهزئة فوق شفتيه، وتقدم منها ليدفعها إلى خارج الغرفة واقفل بابها. ثم قال: «تريدين الشجار؟ فلنتشاجر اذاً، لكن ليس امام اي شاهد! والآن، هل تريدين ان تسمعي مني الجانب الآخر من هذه القصة؟»

«لا.»

سألها بلهجة عنيفة: «هل تريدين فقط ان تصدقي ما يصوره لك عقلك؟»

«ما يصوره عقلي؟ انني لا اصدق ما اسمعه منك! لقد كنت معها في نفس الغرفة وتقول لي باننني واهمة؟»

عاد وسألها بسخرية: «وماذا عن مايكل، هل له اي وجود في حياتك؟»

«بالطبع له وجود.»

«فهمت، وجد ليعاقب هو الآخر.»

«نعم لقد قلتها بنفسك والرجال في نظري وجدوا ليستخدموا كوسيلة للانتقام.»

ضحك بمرارة وقال: «لقد اعتقدت في وقت من الاوقات

ان سبب امتناعك ومعارضتك ناتج عن خوفك مني.»

اجابته وهي ترتجف من التوتر: «حقاً؟ يا للغرابة، مع انه في الحقيقة كنت اضغط على نفسي لاتجاوب معك، فارجو ان تكون قد استمتعت برفقتي!»

«آه، لقد استمتعت فعلاً.» ثم تبدلت فجأة نبرة صوته وقال: «وداعاً يا دافينا، واتمنى لك حياة سعيدة.» وفتح باب الغرفة ودخل اليها ثم اقفل الباب وراءه بقوة.

اخذت شفتاها ترتجفان وترقرقت عيناها بالدموع وهمست: «يا لك من كاذب حقير.» واخذت انفاسها تتسارع وقد ادركت انها النهاية،وابتعدت بسرعة بخطوات متعثرة مضطربة وتساءلت، لماذا فعل ذلك؟ هل لأنه اراد ان يلهو لبعض الوقت؟ أو ينتقم منها كما فعلت معه منذ سنوات؟ هبطت سلالم الفندق وتفاجأت بصعود ايمي وهي تحمل باقة من الأزهار برفقة رجل لم يسبق لها ان رأته، فهتفت الصغيرة قائلة بسعادة: «انظري يا فينا، لقد قطفت بعض الازهار لأمي!»

أمي؟ أمي؟ ونظر اليها الرجل الذي كان برفقة ايمي دون ان يكلمها مع انه بدا عليه بأنه يريد الكلام، فابتسم لها وتابع يصعد السلالم مع ايمي، ثم فتح باب الغرفة، فاسرعت الصغيرة تدخل وكلها حماس لتقدم هديتها.

«انظري يا امي إلى هذه الازهار!»

اذاً، تلك السيدة كانت سيليا والدة ايمي، وكل الذي قالته واتهمته... فتملكها الذعر، لكنها عادت لا شعورياً إلى الغرفة ونظرت إلى الداخل ووجدت سيليا فوق السرير وايمي تجلس في حضنها بينما كان الرجل يبتسم لهما

www.elromancia.com

بمحبة، وجويل كان بعيداً عن هذه الاجواء يقف إلى النافذة محدقاً في المجهول.

رفعت سيليا نظرها ونظرت إلى دافينا نظرة باردة ونادت بهدوء: «جويل.» فالتفت ليحدق بدافينا ولم تكن ملامح وجهه قد تبدلت بعد، منذ ان صرفها مودعاً.

فترددت وهي تقول بغباء: «لقد... لقد وصل المركب.»

«حقاً؟ هذا لطف منك لأن تبلغيني ذلك، لكن الأفضل لك ان تذهبي سريعاً قبل ان يبحر بدونك.» ثم اضاف وكأنها كانت على وشك الذهاب: «ويا دافينا، عندما تخرجين امتعتك من السيارة، اتركي المفتاح في داخلها من فضلك.» ثم اشاح بوجهه عنها وكأن مهمته قد انتهت.

«لكنني...»

«الوداع يا دافينا، واقفل الباب يا جورج.»

بدا جورج متردداً ولم يستطع النظر في عيني دافينا المتألمتين، بينما سيليا تجاهلتها تجاهلاً تاماً.

خرجت دافينا محطمة الفؤاد واقفلت الباب بنفسها، ثم هبطت السلالم مروراً بموظفة الاستعلامات إلى خارج الفندق. ومشت في طريقها إلى السيارة وهي لا تشعر بشيء حولها حتى انها قطعت إلى الطريق الأخرى دون ان تتلفت حولها، وعندما وصلت إلى السيارة، اخرجت منها امتعتها وتركت المفتاح في داخلها كما طلب منها جويل.

الفصل السادس

كانت دافينا في حالة يرثى لها كما وانها كانت معرضة للانهيار في أية لحظة والأفكار المقلقة تتضارب بعنف في رأسها، فانه لا بد وان يلحق بها، لا بل انه سيفعل ذلك، لأنه ليس من المعقول أن تكون هذه نهاية قصتهما. أجل انه سيلحق بها ويعتذر منها، لأنهما تفوها بأشياء لا شعورية وغريبة وهما في حالة من الغضب والانفعال. وصلت دافينا إلى المرفأ وجلست على كرسي تنتظر كما ينتظر غيرها موعد ابحار المركب وأخذت تراجع بامعان تصرفاتها الغريبة، ومن أين جاءت بكل تلك الكلمات التي تفوهت بها وهي على تلك الحالة من الثورة؟ فكأن هذه الكلمات كانت محشوة في رأسها لسنوات عديدة بغية استعمالها في يوم من الأيام، فاستعملتها ضد جويل وكان ما كان. تذكرت بول الذي هجرها وسبب لها جرحاً عميقاً، ولكنه لم يدمر حياتها، بل على العكس، فلقد جعل منها امرأة ناجحة. إذاً لماذا قالت ما قالته، وبأن الرجال، وذلك من وجهة نظرها، وجدوا ليستخدموا كوسيلة للانتقام. هل لأنها صدمت مرة فاكدت بأن الرجال جميعهم على نفس الخصال؟ لكن بالطبع هذا غير صحيح، والسبب الرئيسي الذي جعلها تبتعد عنهم، خوفاً من أن تسبب لنفسها القهر والأذى مرة أخرى وليس لأنها تكرههم.

تنبهت بعد ذلك كيف من الممكن أن تبدو حالتها وما هو

الانطباع الذي سيأخذه الجميع من حولها عنها، فهي لا تريد بل ترفض في أن يأتي واحد منهم ليسألها إذا كانت بخير. فبدلت من ملامحها بسرعة وتململت على الكرسي تسوي من جلوسها عليه، وأمرت نفسها في أن تتوقف عن التفكير بتشاؤم، فلا بد وان تنتظم الأمور معها. ومن المؤكد بأنه سيتفهم ويدرك حالما يهدأ ويستريح بأن الكلمات التي تفوهت بها، صدرت منها غصباً وبدافع مع الغضب، فلقد شعرت بأنها تأنت مرة أخرى.

لقد قال لها، لا تقفزي إلى النتائج غير الحميدة، لكنها لم تتوقف ولا للحظة لتراجع في نفسها وتفكر بالذي كان يقصده من ذلك، وها هي الآن في أشد حالات الندم تشعر بأنها قد تحطمت وبأن كل ما أفسدته لا يمكنها اصلاحه مرة أخرى. والذي أثارها أكثر كان حديثه مع سيليا بشأنها، فلنفترض بأنها لم تكن هي المعنية بذلك الحديث، فمن غيرها تكون البريئة والقليلة التجارب من عساها تكون غير هي نفسها؟ لكنها كيف استطاعت أن تقول له بأنها قد اجبرت نفسها على التجاوب معه؟ وهل يا ترى صدّق ما قالته؟ وحتى ترتاح، قالت في نفسها، لا بالطبع، إنه لم يصدق ذلك منها، حتى انه لم يصدق شيئاً بشأن مايكل... هل شعرت بالمثل عندما شاهدت بنفسها بول وجيني معاً؟ انها لا تذكر كيف كانت حالتها، غير انها شعرت بالشلل التام وقد فقدت الحس والشعور. تذكرت أيضاً، كيف جاء اليها بول ليشرح لها الأمر، فهل سيأتي جويل ليشرح لها الأمر هو الآخر؟ لا، مستحيل، فجويل ليس كبول. ماذا لو كتبت اليه رسالة تشرح له فيها سوء

التفاهم؟ وتذكرت شيئاً، من تكون هيلين التي جاء على ذكرها في بداية الحديث؟

انطلقت صفارة المرفأ في تلك الاثناء ونشلتها من افكارها المتضاربة تلك، وشعرت للحظة بالتشويش وانها لا تدري أين هي وما الذي تفعله في هذا المكان. ثم انضمت إلى الصف الطويل من المسافرين ومشت ببطء خلفهم وكأنها تعاني من مرض شديد، أما الذي بقي معلقاً في رأسها ولم تجد ايجابة عنه، هو من تكون تلك المدعوة هيلين؟ وأخذت تبحث في ذاكرتها فيما لو أتى جويل مرة على ذكر اسمها في اندورا...

«ماذا؟»

كرر الموظف طلبه بصبر: «التذكرة.»

«التذكرة؟»

تنهد وقد نفد صبره قائلاً: «نعم، التذكرة، أين هي؟»

حدقت به مذعورة ثم قالت بيأس: «انها في السيارة.»

«إذاً، اذهبي واحضريها.»

«لا، لا يمكنني، انني...»

فقال الموظف بهدوء كي لا يفقد أعصابه: «سيدتي، انك تعيقين المسافرين، هيا اذهبي إلى السيارة واحضريها.»

التفتت حولها وقد شعرت بالحرج الشديد، وبالانزعاج من تصرفها الذي يدلّ على ان ارادتها ضعيفة، ثم تركت الصف لتسرع إلى شباك التذاكر وطلبت من الموظف تذكرة بصوت مرتجف، دفعت ثمنها وعادت بسرعة أيضاً لتنضم إلى الصف الطويل من المسافرين، ثم دفعتها إلى الموظف وهي تنظر اليه بتحدٍ وكأنها تقول له، تجرأ واطلب مني

شيئاً آخر، وشعرت بالثورة في داخلها بينما أخذ هو يمعن النظر في التذكرة ويدقق فيها.

التفتت إلى الوراء وقد نفد صبرها، فرأت سيارة جويل تتأهب لدخول المرفأ كما العديد من السيارات، وعندما مدّ الموظف ليعيد اليها التذكرة، انتشلتها من يده نشلاً واسرعت تدخل إلى المركب. وتساءلت كيف بامكان جويل قيادة سيارته الآن، بينما لم يتمكن قبلاً؟ الأنه يحب ملاحقة السيدات الوحيدات؟ ألهذا السبب ثار غضباً، لأنه لم يستطع أن يقرّ ويعترف بذلك؟ ولأن أكثر الاتهامات التي وجهتها اليه كانت صحيحة؟

مزقتها الشكوك وآلمتها عندما أصبحت على متن المركب، فوضعت حقيبتها على الأرض ووقفت تنظر بعينين قلقتين إلى المنازل والفنادق وإلى المكان الذي مرحت وضحكت فيه مع ايمي منذ بعض الوقت... وفكرت انه ربما كان ينبغي عليها أن تصغي اليه... لكن ما الذي كانت تتوقع أن تسمعه منه؟ الأعذار؟ الأكاذيب؟ والمدعو جورج، تذكرت فجأة، من عساه يكون؟ هل هو صديق جديد لسيليا؟

أرخيت المرساة الحديدية للمركب بعد ان أصبح المسافرين وسياراتهم داخله، وبدأ يتحرك إلى الوراء ليتمكن بعد ذلك من الالتفاف والابحار. لم تحوّل نظرها عن الفندق الذي كانت فيه برفقته مع ايمي والذي ماتت الأحلام فيه قبل الأوان، أمعنت النظر أكثر لعلها ترى على شرفة الفندق سيدة شقراء تراقب مثلها تماماً، ومعها فتاة صغيرة داكنة الشعر.

وعادت تفكر بأمور أخرى، وبتلك الاتصالات الهاتفية

التي كان يجريها، فهل كانت كلها لسيليا؟ ليحاول اقناعها بأن توافيه ليسلمها ايمي؟ ربما كذب عليها ولم يكونا في الحقيقة منفصلين، فلماذا لا تذهب وتفتش عليه في المركب وتستوضح منه هذه الأمور؟ لكنه هل ستتمكن من مواجهته بعد الذي حصل؟ وكم تمنت لو انها لم تلتق به من جديد بعد تلك السنوات لأنه جدد الألم في حناياها، الألم الذي حاولت بعناد وقوة أن تبعده عنها بعملها المتواصل الدؤوب. ومن يراها الآن وهي في هذه الحالة الرهيبة، لن يخطر على باله بأنها تعاني أشد الآلام النفسية، بل سيعتقد بأن هواء البحر سبب حساسية لها في عينيها فجعلها تذرف الدموع دون توقف. شعرت بعد ذلك بالتعب من وقوفها الطويل ومشت إلى أقرب مقعد لتجلس عليه داخل المركب تنتظر مرور الوقت والساعات التي تفصلها عن وصولها إلى أرض الوطن. ولمرتين ذهبت تفتش عليه لتناقش الأمر معه فقد يُزال سوء التفاهم بينهما، لكنها لم تجده في كل مرة. فأخذت ترشف القهوة فنجاناً تلو الآخر دون أن تتوقف لعلها تهدىء وتسكن نفسها، انما ذلك لم يزدها سوى يأساً وحزناً. ثم حاولت أن تلهي نفسها بالكتاب الذي اشترته لايمي، تقلّب صفحاته باهمال دون أن تقرأ فيه شيئاً، لأن رأسها كان مشتت الأفكار.

كان الليل قد أرخى سدوله عند وصول المركب إلى مرفأ بورتسموث، ولو جاء أحدهم ليسألها كيف كانت الرحلة، لن يعرف منها شيئاً يمكنه الاستفادة به. حملت حقيبتها وخرجت من المركب مع بقية المسافرين، ثم أخذت تفتش عن سيارة أجرة إلى أن اصطدمت بسيارة جويل، وقد كان

ينتظرها في داخلها، فترجل منها رأساً عندما شاهدها ودار حولها ليفتح الباب الآخر لدافينا.

«اصعدي.»

وقفت حائرة وغير مصدقة ما الذي يجري، وعندما وجدها على هذا الحال، حرك رأسه بعصبية كأنه يقول لها مجدداً بأن تدخل إلى السيارة، فعلت ما طلبه منها باذعان ثم أخذ حقيبتها من يدها ليضعها في الصندوق، وانطلق بالسيارة ليتوقف بعد ذلك في مكان ما إلى جانب الطريق.

«جويل...»

«اخرسي، لا تتكلمي، لا تتحركي، فأنا لست بمزاج طيب.»

«إذاً، لماذا اصطحبتني معك؟»

«لأنني رجل نبيل.»

«هاه!»

فأنذرها قائلاً: «دافينا، الزمي الهدوء.»

«انني...»

نظر اليها نظرة أخرستها ومنعتها عن متابعة الكلام، لكن رأسها لم يخرس، فقد كان يحمل اليه كلاماً كثيراً، فإذا تابع يعاملها وكأنها فتاة طائشة...

وعندما سألها عن عنوان منزلها، أعطته اياه بنبرة ثابتة، لكنها وبعد ذلك لم تستطع أن تتحمل المزيد.

فقالت له: «اسمع، انني آسفة لأنني قفزت إلى النتائج غير الحميدة.»

«هل حقاً تشعرين بالأسف؟»

«نعم، لذا أرى انه ينبغي علينا مناقشة هذا الأمر لنتوصل إلى اتفاق بيننا، أو...»

«أو؟»

«أو دعني أخرج من السيارة لأستقل القطار أو أية طريقة أخرى للمواصلات.»

«هل تعنين بالطريقة الأخرى انك قد تتصلين بمايكل؟»

«لا وجود لمايكل على الاطلاق، فلا تكلمني بهذه الطريقة وكأنني طفلة في الرابعة من عمرها.»

«لماذا كذبت إذاً؟»

«لأنني تأذيت وجُرحت مرة!» ثم حولت نظرها إلى الطريق وقالت: «التفت إلى اليسار في المنعطف التالي، ثم إلى اليمين... آه لو شرحت لي...»

فقال بحدة: «وهل منحتني أية فرصة؟»

«نعم، أعني لا... توقف أمام هذا...» توقفت فجأة ونظرت بدهشة عندما وجدت الانارة في الممر المؤدي إلى منزلها والباب مفتوح، ثم قالت: «ما الذي...» بدأت تقول ثم توقفت وكأنها أدركت ما الذي يجري، فتابعت: «آه، لا تقل لي بأن هناك بعض اللصوص!» واسرعت تترجل من السيارة لتتوجه إلى منزلها.

فأمسك جويل بيدها يمنعها عن محاولتها تلك قائلاً بغضب: «توقفي يا دافينا! ألا تملكين ذرة من العقل؟ فكيف تريدين الدخول إلى منزلك وأنت لا تدرين بعد ان كان في داخله لصوصاً أم لا؟» ثم رافقها في الممر المؤدي إلى المنزل، ليتوقف بعد ذلك بدهشة واستغراب، لقد خرج من منزلها رجل وقد أسرع يقول عندما شاهد جويل أمامه: «من تكون أنت؟» ولاحظ بعد ذلك دافينا إلى جانبه فتقدم بسرعة اليها والغضب يشتعل فيه.

«أين كنت لغاية الآن؟»

www.elromancia.com

دهشت واحتارت في أمرها عندما تبينت ملامحه: «مايكل؟ ما الذي تفعله هنا؟»

«أبحث عنك! لقد قلت بأنك ستصلين يوم الاربعاء وأكدت لي ذلك!»

«نعم أعرف ذلك، ولكنني...»

قال مايكل بغضب: «بينما اليوم هو يوم الجمعة! الجمعة!»

«أعرف بأن اليوم هو يوم الجمعة، ولكنني...»

«لقد كدت أفقد عقلي! لقد استمريت وليومين متواصلين أجيء إلى هذا المكان لأقرع باب منزلك و...»

علا صوت دافينا بحنق وقالت: «مايكل! هل تخرس من فضلك؟» ثم تنهدت بعمق وتابعت تحاول معه من جديد: «اسمع، هذا... جويل. جويل!» وأسرعت وراءه مذعورة.

فقال لها جويل باستهزاء: «لا وجود له أليس كذلك؟ فمن يكون هذا إذاً؟» ثم أسرع إلى سيارته ثائراً بجنون.

وصرخت قائلة: «لكنه فعلاً لا وجود له... جويل، دعني أشرح لك الأمر!»

وسمعته يقول بغضب وقد أدار محرك سيارته: «طبعاً يمكنك ذلك.»

شعرت بالاحباط ورفست حقيبتها بحنق وغضب وقالت: «انك مجنون حتماً! وإذا كان ليس باستطاعتك أن تصغي الي، فلا تعود!»

«ما هذا الذي يجري ويدور؟ ومن يكون ذلك الرجل؟»

«جويل.» تمتمت باسمه بينما تابعت تحدق بالسيارة المبتعدة.

فقال مايكل باستخفاف: «رجل لطيف، من المؤكد ان تصرفاته تترك انطباعاً في النفوس.» ثم حمل حقيبتها وهمّ بالدخول إلى المنزل قائلاً: «حسناً، هيا ادخلي يا دافينا ولا تستمري في الوقوف هكذا، فأنا أريد منك تفسيراً على ما يحصل!»

وتفاجأ عندما قالت: «على فكرة، لماذا ترتدي معطفاً، اننا في فصل الصيف!» وتجاهلت نظراته المذهولة التي وجهها اليها، قائلة في نفسها من المؤكد ان والدته قالت له في صغره ان لا يرتدي الثياب الصيفية الخفيفة قبل انتهاء شهر أيار (مايو)، وقام هو بنصيحتها حتى بعد ان اصبح رجلاً! لكن هواجسها القلقة عادت اليها وتساءلت، لو انها لم تجد مايكل، فهل كان جويل سيدخل إلى منزلها ليناقش الأمر معها؟

بعد ان شرحت له بجفاف سبب تأخيرها عن الموعد المحدد، سألته: «ما الذي دعاك للبحث عني؟ فلا اعتقد انك قمت بذلك بدافع القلق.»

«بالطبع لم يكن بدافع القلق.» استنكر قولها بنفاد صبر ودون أي تفكير منه بأنه قد يجرح مشاعرها، ثم تابع: «أردت أن أبلغك بأنك ستقومين بحديثك عن الأعشاب في فندق كلاريدج غداً.»

«غداً؟ مستحيل لا يمكنني أن أقوم بذلك غداً!»

«لا خيار لك، فلقد وافقت على هذا الأمر مسبقاً.»

«لكنني عدت لتوي وأريد أن أستريح من عناء السفر!»

«أعرف ذلك! لكنني عندما وافقت عليه، كنت متأكداً بأنك ستعودين يوم الأربعاء، وان يومان من الراحة يكفيان لك.»

وافقته باذعان قائلة: «معك حق.»

«أفهم بأنك تشعرين بالتعب.»

«انني فعلاً كذلك.»

«تبدين في حالة تعيسة.»

«أعرف، ولكن متى تريدني أن أكون في كلاريدج؟»

«عند الظهيرة، هل تشعرين بالمرض؟» سألها ذلك بقلق، لأن من عادة مايكل أن لا يكون طيباً مع الذين يشكون المرض، وعلى الأخص مع من يتعامل معهم.

نفت قوله بضعف قائلة: «لا، لكن هل ستذهب معي إلى حيث سأجري الحديث؟»

«أنا؟ وما الذي يدعوني للذهاب معك؟ انك تعرفين جيداً بأنني أكره مثل هذه الأمور.»

«نعم.»

بدت على ملامح وجهه الضاربة إلى اللون الأحمر، الدهشة ثم سأل بقلق: «ما دمت تعرفين ذلك، لماذا طرحت عليّ هذا السؤال إذاً؟»

«لا أدري لما فعلت ذلك.»

ثم عرض عليها أمراً دون أن يكون مقتنع به: «إذا أحببت، يمكنك المجيء إلى المكتب أولاً، أعني، إذا كنت تعتقدين بأنك بحاجة إلى المساعدة أو إلى أي شيء آخر. مع انني لا أدري لماذا قد يكون ذلك، فأنت لم تتصرفي بالمثل في السابق.»

«لا، هذا لا يهم، وهل سأقوم بالأعمال المعتادة نفسها؟»

«نعم، كما ان مكتب الاستعلامات هناك سيدلك إلى أين تتجهين.»

«جيد.»

أخذ يحدق بها للحظات طويلة ثم قال: «هل أنت متأكدة من أنك بخير؟»

«نعم يا مايكل، انني متأكدة من ذلك.»

«وهل ستكونين بخير في الاسبوع القادم للحديث الذي ستجرينه في ويلتشاير؟»

«نعم وفي ادنبرغ أيضاً.»

«جيد جداً، من الأفضل لي أن أذهب الآن وأدعك تستريحين.»

«نعم، كما وانني سأتصل بك مباشرة بعدما أنتهي من حديثي.»

أومأ برأسه موافقاً مع انه كان ما زال يبدو عليه عدم الاقتناع من انها بخير.

أحكمت اقفال باب المنزل وتوجهت رأساً إلى السرير وهي تشعر بالتعب الشديد، وقد بدت لها الأمور والأحداث التي جرت غير حقيقية وكأنها لم تخض تجاربها. لكن من المؤكد انها لن تنتهي على هذه الصورة من سوء التفاهم وعدم الادراك. وتساءلت بمرارة، هل انها لو ذهبت لرؤية جويل سيصغي اليها عندما تشرح له الأمر؟ وحاولت أن تبعد هذه التساؤلات عن رأسها لتستريح وتنام من أجل الأعمال التي تنتظرها في الغد، لكنها لم تستطع، وظلت الأفكار تتضارب في رأسها على وتيرة واحدة، إلى ان داعب جفنيها النوم لتغرق في كوابيس مزعجة من الانفعالات في تصرفاتها وتصرفاته... وعندما استفاقت في صباح اليوم التالي، لم تتبدل أحوالها من الحيرة والارتباك والتردد عن

www.elromancia.com

الأمس. وكانت تعتقد في كل مرة يرن جرس الهاتف فيه، بأنه هو المتصل. فقررت أن تتصل هي به إذا لم يبادر هو بذلك، لكن ماذا لو أدار لها ظهره ولم يهتم، فماذا سيكون بعد ذلك؟ وتراءت لها رؤية سعيدة عن المستقبل، ان تتزوج منه وتنجب طفلة شبيهة بايمي بشعرها الداكن وعينيها الزرقاوين وبمنزل ملؤه المرح والدفء والسعادة... فهل سيتحقق حلمها، أم ستبقى هذه الرؤية مجرد رؤية في خيالها.

وعند الظهيرة قامت بالحديث المقرر في الفندق، وعندما انتهت منه، قادت سيارتها إلى منطقة هام كومون حيث يعيش جويل فيها، وكانت قد عرفت العنوان عندما قرأته صدفة في دفتر حجوزات الفندق الذي نزلت فيه وهو برفقتها في فرنسا. انه يعيش الآن في منزل آخر غير الذي كان يعيش فيه سابقاً.

وجدت سيارته متوقفة في مجاز صغير تابع للمنزل، وعلى جانبيه أشجار مختلفة، بينما غطى القرميد الأحمر نبات متعرّش ذو زهر عنقودي أبيض، كما تبعثرت على الأرض الأوراق التي تساقطت من أغصان الشجر. أوقفت سيارتها وفتحت البوابة الحديدية ومشت في المجاز الصغير إلى أن وصلت إلى الباب فدقت جرسه، وبعد لحظات قليلة فُتح الباب بطريقة الكترونية.

اندهشت لأنها لم تتوقع شيئاً مثل هذا، ودفعت الباب بتردد ثم أخذت تنظر حواليها. وتتابعت دهشتها، لأنها كانت تتوقع أثاثاً وسجاداً فاخراً تمشياً مع الثروة التي يتمتع بها. لقد وجدت أثاثاً خفيفاً باللونين الأبيض والأسود، ونبات

أخضر ذو ألياف عريضة في أوعية سوداء اللون. وكانت جدران المنزل قد طليت بطلاء أبيض، بينما اللوحات بإطار أسود. فتساءلت هل هذه اللوحات بريشة جويل يا ترى؟ أمعنت النظر في الامضاء الذي في أقرب لوحة ودهشت من اسم الرسام الذي لم تسمع به أبداً.

ثم حولت نظرها إلى السلم اللولبي ونادت: «جويل؟»

«انني هنا في الأعلى.» وجاء صوته بارداً غير مكترث، فكادت ان تعود أدراجها وتهرب من هذا المكان. ولكنها شجعت نفسها وأخذت نفساً عميقاً، وأمسكت بالدرابزين الحديدي للسلم وبدأت بالصعود. وعندما وصلت إلى نهايته توقفت فجأة وقد وجدت جويل في آخر الرواق يحمل فرشاة ويتأمل في الرسم الذي كان يرسمه.

فقالت بلطف: «هل رأيتني عندما وصلت؟»

«نعم، وأرجو منك أن تختصري في كلامك لأنني مشغول.»

تألمت في نفسها من الطريقة التي يريد أن يصرفها بها، فهذا يعني انه لا يريدها، ان الرجال أمثاله لا يتلائمون مع نساء مثلها. ولكنها وقبل أن تخرج من هذا المكان، يجب أن تطلعه على الحقيقة التي أساء فهمها الليلة الماضية.

فتقدمت منه ثم قالت بهدوء: «مايكل هو ناشر كتبي.»

فسألها دون أن يتغير فيه شيء: «حقاً؟»

«نعم، وليس خطيبي.»

ابتسم لها ابتسامة قاسية ثم تحول عنها ليتابع عمله وهو يقول: «وأخذ بك الأمر يوماً كاملاً لتفكري بهذه الأعذار؟»

نفت قائلة: «لا.» وعرفت بأن الأمر لن يكون سهلاً معه،

www.elromancia.com

فتابعت برقة: «كنت أجري حديثاً في فندق كلاريدج، ولهذا السبب كان مايكل ينتظرني الليلة الماضية.»

«حقاً؟»

«نعم.» وكادت أن تصرخ قائلة: انظر الي وابتعد عن عنادك وكبرياؤك! لكنها قالت عوضاً عن ذلك: «لماذا لم تقل لي بأن تلك السيدة هي سيليا؟»

«وهل هذا يهم؟»

قالت بنبرة هادئة: «نعم يهم.»

«لماذا؟»

«لأنه يهم. فماذا كانت تفعل معك؟»

«أرادت أن ترى الاصابة في ذراعي.»

«لماذا؟»

نظر اليها وقد رفع احد حاجبيه قائلاً: «بدافع من الفضول والاهتمام!»

تنهدت بعمق واليأس يملأ قلبها ثم قالت: «هذا كل ما في الأمر؟ نهاية الشرح الذي انتظره منك؟ انك تجعلني أسحب الكلمة من فمك سحباً. أريد أن أعرف لماذا كانت هناك؟»

«تنتظرني.»

«لماذا؟»

«لتأخذ ايمي.»

«وعندما كنت تقوم بالاتصالاتك الهاتفية، هل كانت لسيليا؟»

«صح.»

قطبت حاجبيها قائلة: «لكن لو كان المركب موجوداً في الموعد المحدد، لكنا سافرنا دون أن تسلمها ايمي.»

فقال مستهزئاً: «نعم، لقد حالفنا الحظ عندما تأخر في الوصول، هل انتهيت من تحقيقاتك؟»

أجابت وقد نفد صبرها: «لا، أريد أن أستوضح بعض الأمور. لقد أصريت على أن تتخذ طريق كاين بدلاً من ديابي، هل لأنك كنت تفكر بأن سيليا قد تكون هناك وبأننا لن نتمكن من السفر بالمركب...»

«لا.»

«لا، ماذا تعني بذلك؟»

كان يصب كل انتباهه على اللوحة التي أمامه، فأجابها ببرودة أعصاب: «كنت أعرف مسبقاً بأن سيليا تقوم برحلة سياحية قرب كاين، وكان من المفترض أن أسلمها ايمي، فلهذا السبب أصريت على سلوك تلك الطريق ولا لأي سبب آخر.»

«حسناً، ولكن لماذا لم نذهب اليها مباشرة؟»

«لأنني وعندما اتصلت بها لم أجدها حيث كانت.»

«لذا، عدت للاتصال بها مرة ثانية في صباح اليوم التالي.»

«نعم، ولكنني لم أجدها أيضاً، لأنها خرجت لتمارس رياضة الغولف، فتركت لها رسالة أبلغها فيها بأن المركب سيتأخر، وطلبت منها لو ان بامكانها أن توافيني إلى الفندق.»

«ألهذا السبب كنا نجلس في المرفأ أكثر الأوقات، كي تتمكن من رؤيتها وهي قادمة؟»

«نعم، وقد جاءت على جناح السرعة، وكنت قد ذهبت أنت في تلك الاثناء لتهتمي بشؤونك.»

«فهمت.»

«جيد.»

ثم قالت له بنبرة متوسلة: «هل ما زلت لا تصدق بأنني كذبت عليك بشأن...»

«عندما قلت بأنك اجبرت نفسك؟ لا، لا أصدق.»

«لكن لماذا؟ يجب أن تعرف...»

أردف مستهزئاً: «بأنني رجل نبيل؟ آه أعرف ذلك جيداً.»

«جويل! كفاك سخرية! فلو انك شرحت لي... او اهتميت بي، لكنت جعلتني اصغي اليك.»

«صحيح؟ فلو كان لديك ذرة من الاهتمام بي لكنت تركتني أشرح لك الأمر.»

«كنت ثائرة وأشعر بالجرح والأذى، وتمنيت لو انك تتفهم ذلك مني، خاصة وانت تعرف ما حدث لي مع بول.»

وافقها دون أي اهتمام يُذكر وتابع يركز اهتمامه باللوحة: «نعم، لكن هل ثرت في وجهه متهمة اياه كما فعلت بي دون ان تعرفي حقيقة ما يجري؟ ومقابل ذلك اعتمدت على افتراضاتك وعلى ما يصوره لك عقلك؟»

فسألته بهدوء: «وهل انك لن تسامحني على افتراضاتي تلك؟»

«لا.»

«لماذا؟»

«لماذا؟» قال ذلك ببرود ثم وضع الفرشاة بين أسنانه وأخذ يتأمل اللوحة التي يرسمها، ثم سحب الفرشاة والتفت اليها ليتابع برود: «لماذا برأيك؟»

«ألأنك لم تكن تريدني يوماً؟ او لأنك وجدتني امرأة لا

تستحق التفكير بها؟ أو لأنك غاضب علي؟ آه يا جويل، لا أدري لماذا أنت...»

قاطعها بعنف: «غاضب؟ لا يا دافينا، أنا لست غاضباً. بل وعلى عكسك تماماً. متى تقع الواقعة ادير لها ظهري ولا أهتم بها حتى انني انساها كلياً. لقد ارتكبت خطأ كذلك أنت.»

«نعم، لكنني فهمت الحقيقة بعد ذلك، ولكن هل اذا اعتذرت منك لن يغير شيئاً من موقفك؟»

«لا.»

وادركت دافينا انه لن يغير موقفه حتى لو توسلت اليه ورجته، لكنها بالطبع لن تفعل ذلك، ثم سألته متأملة: «أمر مضحك، أليس كذلك؟ فأنا لم أتوقع أن يستمر الذي بيننا، وفي الحقيقة لم أتوقع شيئاً. ربما ينبغي عليّ ان اشكرك لأنك جعلتني أشعر بأنني ذات قيمة أكثر.»

«إذاً وفي هذه الحالة أقول لك بانه سرني جداً ان أكون في خدمتك. عودي الآن إلى مايكل...»

«لقد قلت لك بأنه ناشر كتبي.»

«ممتاز، بلغيه تحياتي من فضلك. على فكرة هل اخبرته بشأننا؟»

«لا.»

«فتاة حكيمة.»

وافقته بحزن: «نعم، وإذا صح التعبير بدأت ان أكون كذلك. أريد أن أطرح عليك سؤالاً أخيراً، من هي هيلين؟»

«انها واحدة من الذين يشترون لوحاتي، الوداع يا دافينا.»

www.elromancia.com

«الوداع.» همست بيأس شديد، لكنها لازمت مكانها لفترة أطول، فقط لتنظر اليه. وتساءلت كم كانت ستستمر صداقتهما لو انها لم تسرع إلى الفندق بحثاً عنه؟ وأدركت وبحزن ان تلك الصداقة لم تكن لتستمر ولا بأي ظرف من الظروف، ذلك لأن الثقة كانت معدومة بينهما، ثم تجرأت وسألته السؤال الذي طرحته على نفسها: «كم كانت ستستمر صداقتنا يا جويل؟»

«تستمر؟ لم أكن عازم على ان تستمر بيننا.»

ضحكت بوهن وقالت: «إذاً لو انها لم تنته في كاين، كانت ستنتهي في بورتموث، هل هذا ما تحاول قوله؟»

«أنت حقاً فتاة ذكية. هل هناك شيء آخر؟»

«لا، ليس هناك أي شيء آخر. أنا...»

وقطع كلامها صوت ناعم جاء من ورائها: «آه، رائع، هل هناك مشاجرة أخرى؟»

استدارت دافينا بسرعة لتصبح وجهاً لوجه أمام سيليا، فقالت مترددة: «لا، كنت على وشك الذهاب، على فكرة لم أكن أعرف، فهو لم يقل لي بأنك زوجته السابقة.»

أجابت سيليا: «علمت بذلك.»

التفتت إلى سيليا وقالت بهدوء: «آسفة، لأنني كنت فظة في تصرفاتي عندما كنا في فرنسا.»

«فظة؟ لا بل كنت فاسدة الأخلاق!»

«أعرف، آسفة، اعتقدت...»

«لقد أوضحت جيداً ماذا تعتقدين! واظهرت كم أنتِ رحبة الصدر منفتحة التفكير...»

عبّر جويل عن ازدرائه وسخريته على التصرفات التي

تصرفت بها دافينا في ذلك الحين باشارة من يده، فابتسمت له سيليا بمكر ثم قالت له: «انك حقاً رجل حقير، ألا يمكنك أن تشعر بمدى حزنها وتأثرها؟»

«هذه، طبيعتي يا سيدتي العزيزة، فأنا لا أخترع شيئاً من عندي... وبالمناسبة، هل يمكنني أن أعرف ما هو السبب الذي دعاك للمجيء إلى هنا؟»

«بحثاً عن جورج.»

«آه، اعتقد انه عليك أن ترخي الحبل قليلاً معه.»

«وهل تراني أكبله؟»

وتابع قائلاً متجاهلاً كلامها: «قد تخسرينه في يوم من الأيام.»

«كما حصل معك تماماً؟»

فقال بنفس النبرة الباردة والهازئة: «هيا اذهبي من هنا يا سيليا ولا تنسي ان تأخذي دافينا معك.»

تنهدت سيليا وقالت: «أريد أن أعلم منك شيئاً قبل ان اذهب، الم يكن من الواجب على جورج أن يمر ليأخذ تلك اللوحة الصغيرة؟»

«لا أدري، فأنا لم أره بعد، قد تجدينه الآن في ملعب الغولف.»

فقالت بحنق: «الأفضل له أن لا يكون هناك.» ثم القت نظرة على الساعة في يدها وتابعت تقول متنهدة: «أين اللوحة؟»

أشار جويل بيده إلى زاوية من دون أن يتفوه بكلمة واحدة، فمشت سيليا بالاتجاه الذي أشار اليه، ثم رفعت الغطاء القماشي عنها وهتفت بلطف: «آه يا جويل، انها رائعة، انك وعندما ترسم بهذا الابداع، أسامحك على أي شيء.»

www.elromancia.com

أصرّ على أسنانه دون أن يجيب.

ابتسمت سيليا لردة فعله وتقدمت نحو دافينا تتأبط ذراعها وتمشي واياها في اتجاه السلالم لينزلا إلى الطابق الأسفل قائلة لها: «اننا نزعجه ونعيقه عن التركيز على عمله، تعالي معي فالوقت عنده من ذهب.»

وعندما اصبحتا في قاعة الطابق الأسفل، وسيليا تحمل بيدها اللوحة التي أثارت دهشتها دون أن تفارق الابتسامة وجهها، توقفت ونظرت إلى دافينا بعمق ثم عرضت عليها اللوحة وهي تقول: «ما رأيك بها؟»

حدقت دافينا باللوحة ثم ابتسمت بمرارة وقالت: «انها لوحة رائعة.»

«نعم، انها بريشة جويل.»

«هل جويل هو الذي رسمها؟»

«نعم، ولقد كلفه بها أحد الأشخاص، ولسوف يمر على صالة المعرض ليأخذها بعد ظهر هذا اليوم.»

«هل المعرض هو خاصتك؟»

قالت: «نعم، لي ولجورج.» وأخذت تغطي اللوحة بالغطاء القماشي بانتباه وعناية. وسألتها بعد ذلك: «أتريدين نصيحتي؟ انسيه، فالفنانون أمثاله يصعب العيش معهم.»

فسألتها دافينا: «ألا تعيشين هنا؟»

«بالطبع لا، لأننا نتفق أكثر إذا كانت المسافة بيننا تتعدى البضعة أميال.» ثم ابتسمت لدافينا بطريقة ودية وسألتها بفضول: «هل أنت حقاً تريدينه؟»

«نعم.» اعترفت دافينا بصدق، فما من شيء يجبرها لتكذب في مثل هذا الموضوع.

«إذاً، لماذا لحقت به إلى الفندق وانت ثائرة والغضب أعمى بصيرتك؟»

«لأنه حصل شيء مماثل في السابق.»

سألت سيليا بدهشة واضحة: «مع جويل أيضاً؟»

«لا، مع شخص آخر. وفعلت ما فعلت لأنني لا أعرف الكثير عنه، ولأنني...»

«هل شعورك نحوه أقوى وأشد من شعوره نحوك؟»

«ربما.»

فقالت سيليا بعدم اهتمام: «الرجال لا يستحقون منا هذا الألم.»

«ولا حتى جورج؟»

ضحكت سيليا قائلة: «جورج؟ ولا حتى جورج. بالمناسبة، جورج هو شريكي في العمل، فنحن نتكفل بادارة المعرض معاً... كما انه يعلمني رياضة الغولف، ولهذا السبب كنا في فرنسا، ولكن لا شيء آخر يربطني به.»

فسألتها دافينا: «معرض للوحات الزيتية؟ هل تبيعي لوحات جويل؟»

«نعم بعضاً منها، وذلك لأن معظم لوحاته يرسمها بناء على طلب الأشخاص. أرى انك لا تعرفين الكثير عنه.»

«لا.»

«انه صعب المراس، مزاجي وداهية... آه يبدو عليك انك بحاجة إلى شراب منعش، هيا اتبعيني إلى المطبخ.»

لم تدر دافينا لماذا وافقتها على اقتراحها ولحقت بها، اربما كانت في حالة عجزت فيها عن اتخاذ أي قرار.

«ما كان عليك أن تأتي إلى هنا.» قالت سيليا ذلك وهي

www.elromancia.com

تتناول ابريق العصير من الثلاجة، ثم سكبت في كوبين بعضاً منه وتابعت تقول: «انه لا يحب أن يلاحق، ولكنك لو لم تأت اليه، لما اكتشفت وعرفت وجهه الآخر في الحقد والكراهية.»

فسألتها دافينا: «هل أحببته؟»

بدا على سيليا عدم الاهتمام وهي تقول: «أحببته؟ لا أدري، انما كل الذي أعرفه باننا لم نكن مناسبين لبعضنا. فلقد كنت دائماً أعشق استقلاليتي ولا أصادق الناس إلا إذا كانت آراؤهم تتفق مع آرائي. ولا تدري كم خططت له من المشاريع الهامة، ولم ألقَ لذلك سوى الازدراء وعدم الاهتمام. لقد افترقنا عندما اكتشفت بأنني حامل، ولكن كانت له وجهة نظر أخرى في هذا الموضوع، فقد أصر ان نبقى معاً لأجل الطفل الذي أحمله. وعندما ولدت ايمي، اعتقد انه من الواجب عليّ ان ألازم البيت لأعتني بها. آه، لا تسيئي فهمي، فأنا أحب تلك الصغيرة وأضحي بأي شيء لأجلها، لكنني وأقول لك بصراحة، لست من اللواتي يتمتعن بغريزة الأمومة... لا أدري لماذا أقول لك كل ذلك! آه، يجب أن أعود إلى صالة العرض، هل انتهيت من العصير؟»

شربت دافينا ما تبقى في الكوب ثم ناولتها اياه قائلة: «ارسلي بسلامي لايمي.»

«سأفعل ذلك.» وخرجت مع دافينا متابعة: «ولو كنت مكانك، لوجدت لنفسي عملاً جديداً أغرق نفسي فيه، وانسى أمره كلياً.»

«نعم.» وافقتها دافينا، من الجميل ان يكون المرء ايجابياً كما هي سيليا، ولقد كانت دافينا هكذا قبل أن تعود وتلتقي بجويل من جديد. والشكر لسيليا التي جعلتها تعرفه

أكثر على حقيقته، وردة فعله تجاهها كانت من المؤكد لخيرها وصالحها.

ودعت سيليا وتوجهت إلى سيارتها ودخلت اليها دون أن تنظر نظرة أخيرة إلى المنزل الذي يقيم فيه جويل والذي أوهمها بأنه مهتم بها، ليعود بدون أي سابق انذار إلى ازالة اهتمامه بطريقة مؤذية. لقد ارتكبت خطأ ولن تسامح نفسها أبداً، انها الآن تشعر بألم في حلقها وبشيء مريع يقبض على صدرها، لكنها لن تسمح لنفسها بالبكاء والعويل. لقد أدركت انه من السخافة وقلة الادراك أن تعيش في دنيا الأحلام، بل أن تكون انسانة عملية وواقعية وان تستمر هكذا إلى ما قدر لها أن تعيش. وفكرت بالحديث الذي ستجريه في ويلتشاير بعد بضعة أيام، فلِمَ لا تذهب قبل اليوم المحدد لتروّح عن نفسها المضطربة؟ ومن ثم إلى ادنبرغ لتجري حديثها التالي، وقد تتمكن أيضاً من أن تذهب لزيارة عائلتها بعد ذلك. ثم قالت لنفسها، اشغلي نفسك ما استطعت، فهذا هو قدرك. نعم هذا ما قد قُدر لها منذ ما حدث لها مع بول ولغاية هذا اليوم.

أجرت الحديث في ويلتشاير وبعده في ادنبرغ، وكم كان الأمر صعباً عليها بسبب ما كانت تعانيه من اضطرابات نفسية. ثم سافرت بعد ذلك لزيارة والديها في فلوريدا وطمأنتهما متظاهرة بأن كافة أمورها حسنة وتتمتع بصحة ممتازة. وبعد خمسة أسابيع من اقامتها هناك عادت إلى وطنها وقد لوحت شمس فلوريدا بشرتها وبعضاً من خصلات شعرها. توقفت سيارة الاجرة أمام منزلها، وخرجت منها وقد ارتدت قميصاً قطنياً وبنطالاً واسعاً، وبدت أكثر انتعاشاً وتألقاً. حمل السائق أمتعتها حتى الباب

وناولته الإكرامية، ثم تنهدت بارتياح لعودتها إلى المنزل. ولاحظت ان الحديقة قد امتلأت بالأعشاب الضارة وحجبت أزهارها البديعة. وتناهى إلى سمعها رنين الهاتف في الداخل، فأسرعت تفتح الباب وتدخل متوجهة رأساً اليه.

رفعت السماعة وقالت لاهثة: «الو.»

«دافينا؟»

«نعم.»

«من حسن حظي أنني وجدتك أخيراً! فأين كنت طوال هذه المدة؟»

أجابت بضعف: «في فلوريدا، من يتكلم؟»

«سيليا.»

«سيليا؟»

أجابت بنفاد صبر: «نعم سيليا، وأرجوك أن تتوقفي عن تكرار كل كلمة أقولها! انني بحاجة لمساعدتك، كما انني أثق بانك ستقومين بذلك! فلقد بات لا يطاق أبداً!»

«عمن تتكلمين؟»

«عن جويل بالطبع!»

جويل؟ تردد اسمه في نفسها واغمضت عينيها وقد شعرت بالهزيمة، ثم أخذت نفساً عميقاً وقالت: «حسناً، ماذا يُطلب مني حيال هذا الأمر؟»

«أن تأتي لزيارته.»

«وبماذا ستفيده زيارتي؟»

«في الحقيقة، لا أدري، ولكنني وبعدما رأيت تبدل حالته منذ يوم اختفاءك...»

«انني لم اختفِ! لقد سافرت إلى...»

قاطعتها سيليا قائلة: «إلى فلوريدا، أعرف، لكن ما الذي دعاك للسفر إلى هناك؟»

«انه مكان رائع و...»

«يمكنني أن أتصور ذلك! لكنني أريدك الآن هنا!»

أصيبت دافينا بذهول تام وأبعدت سماعة الهاتف عن اذنها وحدقت بها غير مصدقة، ثم استدركت واعادتها إلى مكانها قائلة: «سيليا، لا أستطيع أن أعيش حياتي بالطريقة التي تريدينها أنتِ، فلدي أعمالي واهتماماتي الخاصة الآن.»

«أنا لم أقصد ذلك، وأطلب منك أن تتوقفي عن التظاهر بأنك غير مهتمة. والآن، احضري إلى هذا المكان بأسرع ما يمكن، سأعطيك العنوان!»

أسرعت دافينا تقول: «سيليا، لقد وصلت من المطار لتوي، ولا يمكنني أن أخرج بهذه السرعة حتى لو كنت راغبة بذلك، فكيف بي وأنا لست راغبة؟»

«لا بل ستأتين! فلا تكوني بهذا الضعف!» ثم خيّم صمت ثقيل الوطأة بينهما قبل أن تتابع سيليا قائلة: «هل سبب غيابك لأجل الزواج من أحدهم؟»

«الزواج؟ بالطبع انني لم أتزوج! لكن ما أحاول أن أقوله، انه لا يمكنني الخروج بهذه السرعة من المنزل لمجرد انك طلبت مني ذلك، أو لأن جويل أصبح لا يطاق! فهو على كل حال دائماً هكذا!»

«أعرف ذلك كما تعرفينه أنت، ولكن هناك بعض المستثمرين الذين سيأتون بعد ظهر هذا اليوم إلى المعرض ولن أقف مكتوفة اليدين أمام مصير مستقبله والرزق الذي أناله منه!»

www.elromancia.com

«لم أفهم بعد.»

«انه يرفض الحضور إلى المعرض الذي سيفتتح اليوم!»

«أي معرض؟»

«انه المعرض للوحاته والذي سيفتتح بعد ظهر هذا اليوم! وقد رفض الحضور لأنه يتعلم الطيران!»

«انه ماذا؟»

«يأخذ دروساً خاصة في الطيران!»

«لكن هذا ليس من هواياته.»

«تماماً.»

جلست دافينا باعياء على المقعد القريب من الهاتف، وكان الباب ما زال مشرعاً وامتعتها في كل مكان، ثم قالت: «لكن لماذا؟»

«اعتقد لأنك نبذته وتخليت عنه.»

اعترضت دافينا: «لكنني لم أنبذه، بل هو الذي فعل ذلك!»

«لا خلاف على ذلك.»

«بل هناك خلاف في ذلك.»

«دافينا! توقفي وتعالي بسرعة!»

«لكنه لن يعيرني أي اهتمام!»

«قد يفعل ذلك. اسمعي، كنت قد طلبت منك أن تأتي إلى هنا، لكنني اعتقد الآن انه من الأفضل ان تذهبي إلى منزله، فكم يلزمك من الوقت للوصول اليه؟»

«سيليا، لا أريد أن أراه!»

«توقفي عن المقاطعة، هل ستصلين بعد ساعة، أو ربما ساعة ونصف. عموماً هناك متسع من الوقت، فالمعرض سيفتتح في الساعة الخامسة.»

«سيليا...»

قالت سيليا: «هيا اذهبي الآن.» وأقفلت الخط دون أن تفسح المجال لدافينا بالتفوه بكلمة أخرى.

أبعدت دافينا سماعة الهاتف عن اذنها وعادت تحدق بها بذهول تام. انه يتعلم دروساً خاصة في الطيران، فهل هذه نكتة من النكات؟ وما الذي سيجعله يصغي اليها، من المؤكد انه لن يفعل ولن يعيرها أي اهتمام، لقد أمضت بضعة أسابيع تحاول أن تبعد طيفه عن خيالها وها هي الظروف الآن تعيدها إلى الاجتماع به.

أعادت سماعة الهاتف إلى مكانها، وما كادت تفعل ذلك حتى علا الرنين مرة أخرى، فرفعت السماعة من جديد وقالت بانفعال: «ماذا؟»

كانت سيليا مرة أخرى تأمرها قائلة: «الآن، اذهبي الآن يا دافينا!»

«آه...» تنهدت بيأس واقفلت الخط، ثم حملت أمتعتها إلى الداخل والتي كانت ما تزال على عتبة الباب، وحملت مفتاح السيارة وحقيبة يدها وأسرعت بالخروج كهبوب الريح.

ثم قالت لنفسها، بينما كانت تقطع شوارع لندن، بأنها حتماً مجنونة! لقد عاملها وكأنها... وبأية طريقة ستقنعه؟ طبعاً فلا شيء يمكن اقناع رجل مثل جويل.

استغرقت رحلتها هذه ساعة ونصف من الوقت، وعندما وصلت إلى منزله، أوقفت سيارتها أمام البوابة الحديدية المشرعة، حتى باب المنزل نفسه، فأخذت تحدق بكل ذلك بذهول وارتجاف.

وعندما خرجت من السيارة، سمعت سيليا تقول لها: «أحسنت فعلاً!»

www.elromancia.com

«تقولين أحسنت فعلاً؟ لا بد وانني قد فقدت عقلي عندما لبيت لك طلبك.»

«آه، توقفي عن الثرثرة، فليس أمامنا متسع من الوقت، هيا، ادخلي اليه انه في غرفة الجلوس الآن.»

«لكن ما الذي يجعلك تعتقدين بأنني أستطيع المساعدة؟»

«لأنني أعرفه جيداً! على الأقل كما يعرفه أي شخص مقرّب منه! كما وانني لن أسمح بالتضحية بمستقبلي من دون أن أتشاجر معه!»

فقالت دافينا محاولة بصبر معها: «سيليا، لا أفهم ماذا تقصدين بهذا الكلام.»

تنهدت سيليا بطريقة أظهرت فيها بوضوح بأنها من النوع الذي يكره أن يطيل الشرح وقالت: «أريد أن أفتتح صالة عرض جديدة، وحتى أستطيع تنفيذ ذلك، أحتاج إلى مستثمرين جدد، هل توضح لك الأمر؟»

أجابت دافينا: «نعم.»

«لقد وافق جويل لأن يعرض اللوحات التي رسمها وذلك ليتمكن المستثمرون من رؤيتها وليلمسوا مدى أهميته وكيف ان الناس تسرع لشرائها، حسناً؟»

«نعم، ولكن...»

قاطعتها متجاهلة ترددها وقالت: «إذاً، اذهبي اليه وحاولي اقناعه!»

تذكرت دافينا بأنه نعتها مرة بالآمرة الناهية، فقالت: «لكنني متأكدة بأنه لن يصغي الي.»

«لكنه قد يصغي، كما وانني اعتقد بأنه يكنّ لك شعوراً خاصاً! ففي اليوم الذي جئت فيه اليه، كان في حال شديدة من الغضب.»

صحّحت دافينا قولها وهي حائرة في أمرها: «لقد كان غير مبال وغير مكترث.»

«لا، لم يكن كما ظننت، فهو يبدو كذلك عندما يكون غاضباً. صدقيني، فأنا أعرفه أكثر منك ولطالما حصلت مشاحنات بيننا... على أية حال، هكذا يكون حاله عندما يشعر بالاهانة والأذى، أو بالغضب، فيصطنع الهدوء والبرودة، والآن اذهبي اليه وكلميه.»

فتمتمت دافينا: «لن ينجح الأمر! لكن لماذا يأخذ دروساً في الطيران؟ حتى انني لا أفهم لماذا يريد أن يطير!»

تنهدت سيليا وقالت: «لقد صادف وكان في حادثة طائرة السنة الماضية، وأصيب اصابة بالغة في ذراعه، وقال ان ما حدث له كان بمثابة انذار له من تقلبات القدر! ولهذا السبب كنت أفحص ذراعه في فرنسا، وحاولت هيلين معه لمرات عديدة ان يذهب إلى المستشفى للمعالجة، ولكنه كان يرفض دائماً لأنه يكره المستشفيات.»

«انه يكرهني أيضاً!»

«لا، انه لا يكرهك!» قالت سيليا ذلك ودفعت بها نحو الداخل دون أن تفسح لها المجال في مناقشة هذا الموضوع أكثر.

ودخلت إلى الغرفة التي دخلتها سابقاً، وهي منهكة القوى مشوشة الأفكار، ووجدت رجلان، جورج وجويل بوجهه المتحجر والخالي من أي تعبير وقد التفتا بدهشة عند دخولها المفاجيء.

«انها دافينا!» أعلنت سيليا وكأنما هناك من شك في هويتها.

نظر جورج اليها وهو يبتسم بضعف، بينما نظر جويل اليها باستخفاف، فارتجفت دافينا وأخذ قلبها يخفق بشدة من كثرة هلعها.

ثم قال جويل فجأة بسخرية: «حسناً، حسناً، انظروا من قرر المجيء لزيارتي. كم هو جميل منك أن تفكري بزيارتي.»

فأردفت دافينا وقد ملت من تصرفاته: «اخرس، انها لم تكن فكرتي في الأساس!»

أسرعت سيليا تقول: «سنترككما، فأنا متأكدة بأن هناك حديث طويل بينكما، لكن لا تتأخرا.» ونظرت إلى دافينا نظرة ذات معنى. وتابعت تقول: «هيا بنا يا جورج.» استجاب جورج لها وأسرعا بالخروج ليفسحا لهما بالكلام.

فقال جويل بعد ان اصبحا بمفردهما: «ماذا تفعلين هنا؟»

فبادرته دافينا بسؤال آخر: «من أين لي أن أعلم، يبدو ان سيليا تعتقد بأنه يمكنني أن أقنعك بالذهاب إلى المعرض.»

«إذاً، فسيليا واهمة فيما تعتقده.»

«هذا ما قلته لها أيضاً.»

«ومع ذلك جئت.»

«اضطررت لكثرة ما الحت عليّ، ولكن لماذا ترفض الذهاب؟»

«لا أحب أن أسمع كلمات التودد والتملق في مثل هذه الظروف، كما انني لست في مزاج يسمح لي بالاصغاء لتشجيع او لانتقاد الناس، خاصة وان معظمهم لا يفهم شيئاً بفن الرسم!»

«وهل هذا مهم لهذه الدرجة؟ فمثل هذه الأمور تقام عادة ليمضي المرء بعض الوقت في اللهو وفي الاستمتاع باللوحات المعروضة، وان أحبوا أم لم يحبوا لوحاتك، فهذا عائد لهم فقط.»

أجابها وقد ظهر عليه عدم الاهتمام: «أنا معك في هذا، لكن الناس لا يتوقفون عند ذلك فقط، بل يبدأون بالتعليق على الألوان وعلى نوعية القماش وحتى أحياناً على الفرشاة التي استعملها، وكأنهم يفهمون بمثل هذه الأمور.»

«وانت لا تقدر على التزام الهدوء، أو أن تتظاهر بالاهتمام لما يقولونه. لذا تخشى انك قد تستهزء وتستخف بأذواقهم.»

«وكيف لا أكون غير ذلك، فأنا من تعبت ورسمت هذه اللوحات!»

«وتتوقع بأن تشتريها الناس منك.»

«نعم، كما انني انظر إلى هذه اللوحات وكأنها أطفالي، وأريدهم أن يذهبوا إلى بيوت جيدة تقدّر هذا الفن! ألا تعتقدين ان هذا ما قاله فرويد؟»

«ليس لدي أية فكرة، فأنا لم أقرأ له ولا مرة، وأشك فيما لو أنت قرأت له أيضاً. بالمناسبة، كيف حال ايمي؟»

«بخير، وكيف حال مايكل؟»

«لا أدري، فأنا لم أره منذ مدة طويلة.»

«يا لمايكل المسكين.»

«آه، اخرس! لقد سبق وقلت لك إنه ناشر كتبي ولا شيء عدا ذلك.»

«وهل انك حقاً غير مخطوبة له؟»

www.elromancia.com

«نعم.»

«إذاً، كنت تكذبين علي.»

«نعم.»

«لماذا؟»

«لأضمن حمايتي.»

«حمايتك؟ مني أنا؟»

«نعم، اسمع، هل تمانع لو انني أجلس؟ فأنا مرهقة جداً.»

ومشت دون أن تنتظر الرد منه، ثم جلست بارتياح على المقعد الوثير.

فقال بعد ذلك: «لقد لوحت الشمس وجهك.»

«نعم، في فلوريدا.»

«كيف حال والديك؟»

«بخير.»

«والتهاب المفاصل الذي تعاني منه والدتك؟»

«انها أحسن حالاً الآن.»

ثم قال فجأة: «أراك ترتاحين في هذا المقعد غير مبالية، أليس من المفروض أن تحاولي إقناعي بالذهاب إلى المعرض؟»

نظرت اليه باعياء وقالت بهدوء: «جويل. لا يهمني على الاطلاق ان كنت تريد الذهاب إلى المعرض أم لا.»

«في هذه الحالة، كان عليك أن تلازمي منزلك ولا تخرجي منه.»

«معك حق.»

تنهد وأسند بقامته المديدة إلى الحائط ثم قال: «لماذا أردت أن تحمي نفسك مني؟ هل لأنك اعتقدت بأنني قد...»

نفت ما كان يفكر به وقالت: «لا، انما اعتقدت فقط ان الحيطة واجبة. ولا تدري ما اختلج فيّ من مشاعر عندما شاهدتك تلعب وتمرح مع ايمي، لقد جعلتني أدرك بأنني افتقد إلى الأمومة وإلى أن أتزوج وأنجب الأطفال...»

فسألها وهو لا يصدق: «هل حقاً جعلتك تدركين ذلك؟»

«نعم، وخاصة من طريقتها وهي تنظر اليك بمحبة وثقة وتمنيت لو انها ابنتي لأضمها دائماً إلى صدري ولأقرأ لها قصص الأطفال...»

«لكنني لست من...»

ابتسمت وقالت: «لست من النوع الذي يرغب في الزواج؟ أعرف ذلك، ولهذا السبب ابتدعت قصة خطوبتي من مايكل.»

«لأنك وجدت في ذلك حاجزاً يمنعني من الاقتراب منك، أليس كذلك؟»

«نعم.»

«بسبب ما حصل في السابق؟»

«نعم.»

«واعتقدت بأنني سأرفضك وأنبذك؟»

لم تستطع الاجابة عن سؤاله لكثرة ما كانت تعانيه من التعب والارهاق وتمنت لو يمكنها أن تذهب إلى منزلها وتلقي برأسها على وسادتها وتنام.

«لما لا تجيبين؟ ألم تكوني أنتِ البادئة؟ وأول من أعلن الحرب بيننا؟»

«لا.»

«إذاً، لماذا توجهين اتهاماتك إلي؟»

www.elromancia.com

فصرخت بحرقة وألم: «لأنني جُرحت وتأذيت! كان عليك أن تتفهم ذلك!»

«بالطريقة التي أنتِ تفهمتني فيها عندما عدت إلى الفندق لتجديني مع سيليا؟»

«على أية حال، ليس من جدوى لهذه المناقشة الآن، خاصة وانه لن يتغير شيء.»

ثم أخذت تحدق به وقالت لا شعورياً وبصوت هامس ولطيف: «انك الرجل الوحيد في حياتي.»

قال جويل بدهشة واستغراب: «ماذا؟» فلو كانت في حالتها الطبيعية ونشاطها، لكانت لاحظت كيف صدمته كلماتها الأخيرة.

تابعت تهمس وهي لا تدري ما تقوله لشدة تعبها وتشوش أفكارها: «كما انني أدرك بأنها هفوة لا تغتفر لو تعرفت على غيرك.» ثم ضحكت بمرارة وتابعت تقول: «لكنني أقول، لا ولن يكون أحد سواك في حياتي.»

«ماذا؟ دافينا، هل تحاولين القول...»

قاطعته وتابعت تهلوس: «ان الاغبياء يولدون بأحجام مختلفة، القصير والطويل، والهزيل والسمين.» ولم تعد قادرة على ان تبقي عينيها مفتوحتين فأغمضتهما واستغرقت في لحظات لنوم عميق.

«دافينا!» وتقدم خطوة إلى الأمام وهو يمدّ يده يريد أن يوقظها، لكنه امتنع عن ذلك وأخذ ينظر اليها بحيرة، ثم تنهد وقال بلطف: «لقد غيرت مجرى حياتي يا سيدتي، ومنذ سنوات عديدة.»

«جويل.»

التفت إلى الوراء ليرى سيليا واقفة تتأمله، فقال ساخراً كعادته: «انني اعتقد احياناً يا سيليا بأنك فاقدة العقل.» ثم تناول سترته التي كانت ملقاة على الكرسي وتوجه نحو الباب قائلاً: «حسناً، هيا بنا إذا كنت ما زلت تريدين الذهاب إلى ذلك المعرض السخيف... وتوقفي عن الابتسام من فضلك.»

www.elromancia.com

الفصل السابع

فتحت دافينا عينيها ونظرت من حولها بدهشة للأثاث الجلدي الأسود، واستغرقت للحظات طويلة تتلفت حولها دون أن تدرك اين هي بالضبط ولماذا هي مستلقية على تلك الكنبة الجلدية السوداء. وعادت تحدق في ارجاء الغرفة كأنها تعرفها ولا تعرفها، انزعجت من ذلك ودفعت بقدميها إلى الأرض ووضعت يديها بين رأسها تفكر بتركيز شديد لعلها تتذكر أين هي وما هو السبب لوجودها في هذا المكان، ثم تنبهت بعد جهد كبير بأنها في منزل جويل، ولقد جاءت إليه لتقنعه بالذهاب لحضور افتتاح المعرض الذي يضم لوحاته، ولكن وبسبب التعب والارهاق من عناء السفر، استغرقت في النوم دون أن تشعر بذلك، فشعرت بالكآبة واليأس يقبضان على صدرها كالغمامة السوداء، كما شعرت كم هي غبية وحمقاء لتصرفها هذا.

بقيت جالسة ورأسها بين يديها تحدق في أرض الغرفة، وتساءلت بينما الهدوء والسكينة يغلفان أرجاء المنزل، هل يا ترى ذهب جويل إلى المعرض وبالرغم من كل شيء؟ ثم تكلمت مع نفسها. ما الذي يهمك لو ذهب ام لم يذهب، عودي إلى منزلك في الحال. تثاءبت بضعف ووهن، وعندما حاولت أن تنهض تعثرت بخطواتها وكأنها عجوز تجاوز عمرها المئة سنة.

توجهت إلى المطبخ وسكبت لنفسها كوباً من الماء ثم

اخذت تشربه على مهل وعيناها مصوبتان إلى النافذة تحدق بالحديقة الخلفية للمنزل، متسائلة فيما لو أنه من المقصود ان تبقى على هذه الحالة من الاهمال وقد نمت فيها الأعشاب البرية والأشواك. انبت نفسها لانشغالها في مثل هذه الأمور التي لا تعنيها لامن قريب ولا من بعيد. عليها أن تسرع بالخروج من هنا قبل أن يعود، خاصة وأنها تعرف بأنه لا يرغب بوجودها في منزله، ثم عادت إلى غرفة الجلوس لتأخذ حقيبة يدها، ونظرت إلى نفسها في المرآة الصغيرة التي وضعت فوق المدفأة لتصلح من شأنها قدر استطاعتها. فشعرت أنها بحاجة إلى حمام دافىء، وإلى أن تغير ملابس السفر التي سافرت بها...

همست وهي خارجة من الغرفة إلى رواق المنزل، الوداع يا جويل، وأحست بأنها تريد أن تذرف الدموع وتبكي قدرها المحتوم، لا بل تريد أن تنتحب وتصرخ عالياً لعلها تفرج عن نفسها المنقبضة.

«دافينا؟»

استدارت بسرعة ونظرت إلى مصدر الصوت الذي جاء من الطابق الأعلى لتجد جويل يجلس على أعلى درجات السلم اللولبي، فخفق قلبها بشدة وشعرت بأنها ستسقط على الأرض في أية لحظة، لولا أن الحظ أسعفها، وكان الحائط خلفها، فأسندت نفسها إليه تحاول أن تقنع نفسها بأن ما تشعر به نحوه لا فائدة ولا رجاء منه، فلتكف عن تعذيب قلبها وروحها معاً.

ثم سألته بغباء: «ألم تذهب؟»

«أذهب؟»

«إلى المعرض.»

«آه، نعم لقد ذهبت.»

«هل جرت الأمور على خير ما يرام؟ من الواضح انك لم تبق طويلاً.» كانت تحدثه لمجرد الحديث نفسه، ورأسها مشغول بأية طريقة تمكنها من الخروج من هذا المكان.

«هل هذا ما تعتقدينه؟»

«لا أدري... اعني لا أعرف كم الساعة الآن.»

«اننا في صباح يوم جديد.»

«عذراً؟»

«اننا في صباح يوم جديد.»

«كيف؟»

ابتسم بخبث وقال: «آه يا دافينا، لقد نمت على مدار الساعة.»

اتسعت عيناها بدهشة وصاحت: «أحقاً ما تقول؟»

«نعم.»

«هذا يعني انني ما زلت بنفس الثياب التي ارتديتها البارحة؟»

بدا وكأنه وجد الأمر مسلياً، فتابع يبتسم لكن هذه المرة بلطف، ثم وقف وهم بالنزول ليسألها بهدوء: «الرجل الوحيد؟»

«ماذا؟»

«لقد قلت الرجل الوحيد.»

سألت بحيرة وارتباك: «حقاً؟ لكن من يكون الرجل الوحيد؟»

«هذا ما أريد معرفته.» وعندما اصبح إلى جانبها سألها برقة: «هل استعدت هدوءك ورباطة جأشك هذا الصباح؟»

انها في الحقيقة لم تستعد شيئاً سواء من هدوئها أو من رباطة جأشها، لأن الظروف لم تفسح المجال لها لذلك، فهمست متعبة: «يجب أن أذهب.»

«حقاً؟»

«نعم.» أجابت بضعف ثم تابعت: «يجب أن أفتح حقائب السفر وانظر في البريد الذي وصلني في غيابي...»

«حقاً؟»

«نعم.»

«الرجل الوحيد؟»

ولم تشعر كيف تدحرجت دمعة ساخنة على خدها ثم قالت بحرقة: «آه يا جويل، هذا لا ينفع، يجب أن أعود إلى المنزل!»

فهمس بهدوء وبصوت هامس: «إنني أحياناً اتوقع من الأشخاص الذي يهمني أمرهم، ان يفهموا بسرعة ما الذي أريده وما الذي أشعر به دون أن أنطق بكلمة واحدة.»

«هل هذا حقاً ما تتوقعه؟»

«نعم.»

«لقد طردتني قبلاً.»

«أعرف، ولم أقصد ذلك لأنني كنت أشعر بالتعب وبأنني مستغل.»

«هل أنك فعلاً صدقت ما قلته لك في كاين؟»

«بخصوص مايكل؟ نعم، لكنني تمنيت وأملت في أن لا يكون هذا صحيحاً. وكنت أراك أحياناً تبدين مثل سيليا المليئة بالشكوك والتي تتهم الآخرين دائماً، فاعتقدت بأنني لربما أخطأت في اختيارك.»

www.elromancia.com

«أعتقد لأن كلانا كان يعاني من ظروف مختلفة.»

نظر في عينيها ملياً وقال: «لم أفهم.»

«اسمع يا جويل، أنت رجل لا يعرف له قرار، كما وأنك لك قوانينك الخاصة.»

«لكل امرىء قوانين خاصة به.»

«لا، ليس كما تتصور. فقد يضطر البعض أحياناً لذلك في ظروف معينة، انما أنت تفرضها فرضاً تاماً.»

«هل تجدينني متغطرساً؟»

«نعم، كما انك لا توضح الأمور، فتجعل الآخرين يفترضون الأشياء ويسيئون فهمك، واذا اخطأوا فيا ويلهم من غضبك.»

«حقاً؟»

«نعم.»

«وهل وفي هذه الحالة لا تجدين بالرجل اللطيف؟ والغير محبوب؟»

«آه يا جويل، بالطبع أنت رجل محبوب وهنا تكمن المشكلة، لكن من يكون معك لا يستطيع حتى أن يفرق بين رأسه وأخمص قدميه.»

«ولكن كيف تفسرين تلك الأيام الجميلة التي أمضيناها في فرنسا؟»

«انها حقاً كانت أيام جميلة، لكنني كنت دائماً مشوشة الأفكار لا أفهم ما تريده مني بالضبط، لم تبد شكوكي بك، ولم تحاول أن تتفهمني كانسانة وكأنك لا يهمك ما قد أكون.»

سألها بلطف: «وهل عرفتيني أنا كإنسان؟»

أجابته بصدق: «لا، ربما لأنني كنت خائفة من الذي قد اكتشفه، خاصة وان الأمور جرت بسرعة ودون توقع، لكنك رجل ليس من السهل مقاومته.»

«وهل اردت مقاومتي يا دافينا؟»

«نعم، وفي البداية فقط، لأنني خشيت على نفسي من الأذى الذي قد تلحقه بي.»

«لكن ليس بعد ذلك؟»

«لا.»

«لماذا؟»

«لأنني أردت...» توقفت فجأة عن الذي كادت أن تقوله واستدركت متابعة: «لأنني أردت أن أخدع نفسي بأن كل ما كان يجري حقيقة وحتى لو كان ذلك لفترة قليلة، لأنني كنت أشعر بالوحدة بعد ما وضعت حاجزاً بيني وبين الآخرين، حاجزاً يبعد عني الأذى حتى منك، واعتقدت أنني نجحت في ذلك اخيراً وبأنه يمكنني أن أجد الآن شخصاً آخراً يشاركني وحدتي، لكنني...»

«لكنك؟»

«لكنني لم أكن أريد أي شخص آخر، مع انه كان بامكاني ذلك، خاصة في فلوريدا...» توقفت فجأة عن الكلام متنهدة باعياء.

«لماذا جئت إلي الليلة الماضية؟»

«لا أدري، كما وأن سيليا لم تتح لي الوقت لأفكر بالذي تطلبه مني، ربما وافقت على طلبها اعتقاداً مني بأن الحاجز الذي بنيته بيني وبينك ما زال قائماً ولم يسقط.»

«ولم يكن الحاجز كما بنيته؟»

www.elromancia.com

«لا، أعتقد لأنه من اسمنت فاسد.»

«واكثرت فيه الرمل؟» سألها مداعباً ثم تابع: «ان الصداقة التي ربطتنا ببعض لم تكن متينة، لذلك لم نتمكن من التعرف على بعضنا أكثر.»

«معك حق.»

«ولمتك لأنك جعلت الأمور تبدو طبيعية وبالطريقة التي أريدها أنا.»

فسألته بحيرة: «ماذا؟»

«لا يهم، سأشرح لك ذلك لاحقاً. ما الذي قالته لك سيليا عندما اتصلت بك؟»

اجابته بابتسامة حزينة: «بأن تصرفاتك لا تطاق. وافهم الآن لماذا افترقت عنها، لأنها عنيدة وحاسمة في قراراتها.»

«نعم، كما وانها تعتقد بأن العواطف مضيعة للوقت وتعيقها عن المكاسب المادية.»

«لكنها ليست كذلك فيما يختص بإيمي.»

«لا، انما هي ليست لطيفة معها... ولو كانت هي التي قرأت لها في كتاب العصافير كما فعلت أنت، لما كانت اعطت لتلك الطيور اسماء كاسم بيسي مثلاً.»

«هل اخبرتك ايمي بذلك؟»

«نعم...» ثم ابتسم اكثر وبلطف زائد وتابع: «ولهذا السبب جئت الليلة الماضية؟ بناء على طلب سيليا فقط؟»

«لا، لا أعتقد ذلك، ربما لأنني اعتقدت بأنني لا أستطيع أن أبقى بعيدة عنك.»

«وهل ما قلته ليلة البارحة كان صحيحاً وذلك قبل أن

تغرقي في النوم العميق، بأنك لم تتعرفي إلى رجل آخر؟»

تنهدت بعمق ونظرت إليه دون أن تجيب.

فألح عليها: «احقاً ما قلته بأنه ليس من هناك أحد غيري؟ ومنذ ذلك الوقت البعيد وحتى الآن؟» لم تجب دافينا بل بقيت صامتة، فصاح بها: «دافينا! لماذا؟ بقيت إلى جانبك وأنت نائمة، أفكر واراجع الحوادث...»

قاطعته مجفلة: «ماذا؟ بقيت إلى جانبي وأنا نائمة؟»

«نعم، وهل هذا يزعجك؟»

«نعم يزعجني، انك لم تكن... اعني...؟»

«لا، لكنني وعندما وجدتك تتحركين فوق الكنبة، صعدت لأجلس على أعلى درجات السلم، كنت أريد أن أعرف إذا كنت ستريني قبل أن تخرجي!»

«لقد كنت فعلاً على وشك الخروج، لقد اعتقدت بأنك في المعرض ولم أشعر بأنني نمت طوال الليل على تلك الكنبة.»

«لكنك كنت تريدين أن تتأكدي لعلني قد رجعت؟»

«لا.»

«لماذا؟»

«لأنك لم تكن تريدني.»

«آه يا دافينا، أي رجل في عقله الكامل يريدك، فأنت امرأة جميلة وطيبة و...»

فقالت بحزن: «شكراً لك.»

«وهذا ما يحيرني، لماذا لم يكن هناك أشخاصاً آخرين في حياتك؟»

فاجابت بكرامة: «هذا لا يعني بأنني لم أتعرف على أحد أو أنني رفضتهم.»

www.elromancia.com

«لكن عيناك تقولان عكس ذلك.»

«اذاً، فعيناي تكذبان.»

«آه يا فينا.»

«لا تناديني بهذا الاسم.»

ضحك قليلاً ثم قال: «آه يا فينا، انك أظرف امرأة عرفتها في حياتي.»

«نعم.»

ثم تمتم بهدوء: «يصعب علي أن أصدق بأنني ظفرت بك من جديد.»

«حسناً، ولكن لا تتحمس كثيراً، فأنا لست عازمة على أن تستمر الأمور على ما هي عليه.»

نظر إليها مفكراً ثم ابتسم وقال: «ولكنني أنا عازم على ذلك.»

انزعجت من ابتسامته وقالت بثبات: «جويل، سبق وقلت لك بأنني ارغب بالزواج وأن اؤسس عائلة.»

«إذاً؟»

«اذاً سأعود إلى منزلي، وسأحاول أن أبحث عن شخص قد يتزوجني.»

«لكنك عثرت على واحد.»

«لا، لم أعثر.»

ابتسم لها بابتسامة ماكرة دون أن يتفوه بكلمة واحدة، فحنقت منه وقالت: «توقف عن ابتسامتك هذه! أنا ذاهبة على أية حال!»

«لا، لن تذهبي إلى أي مكان، وستبقين هنا حتى نتوصل إلى معرفة بعضنا أكثر، واعرف منك الأشياء التي تحبينها

والتي لا تحبينها، وكذلك عن احلامك، وسأخبرك بعد ذلك وبالمقابل كل شيء عني.»

«لا.»

«بلى.»

«انك لا تريد الزواج وانجاب الأولاد.»

«بلى.»

«لا، انك لا تريد، لقد قلت... وسيليا قالت...»

نظر عميقاً في عينيها الجميلتين ثم قال: «لم أرد أن أنجب فريداً من الاولاد من سيليا، ولقد كنت لأربع سنوات، لا بل لخمس سنوات خلت حلم حياتي، ألم تعرفي ذلك؟»

«لقد قلت ان لا وجود للحب!»

أجابها موافقاً: «نعم، لأنني كنت على الدوام اعتقد ذلك، وبأنني لن أجده لنفسي.»

فسألته بحيرة: «لماذا لم تتصل بي اذاً؟» فلو انه في الواقع اتصل بها سابقاً، لكم كان وفر عليها الكثير من الألم والعذاب.

أجابها مبتسماً بألم: «ذلك لأنني أنجبت ايمي، فشعرت بالمسؤولية تجاهها وتجاه سيليا التي تجاهلتها في البداية واعتقدت بأنني أبالغ بمسؤوليتي تجاههما وان لا من ضرورة لكل ذلك.» توقف قليلاً ليتابع بعد ذلك مفكراً: «اعتقد بأنني ولدت في غير عصري، وكان علي أن أولد في عصور سابقة حيث كانت المرأة لا حول ولا قوة لها وتحتاج إلى الحماية...»

فقالت دافينا بهدوء: «اعتقدت بأنك أحببتها.»

«لا، لقد قلت لك سابقاً بأنني كنت معجباً بها، كما وانني

www.elromancia.com

خدعت بها معتقداً انها تهتم بي شخصياً، بينما في الحقيقة كان لا يهمها سوى ثروتي وموهبتي في فن الرسم التي تدر علي الكثير، وتريد أن تقيدني بالطريقة التي تريدها هي، إلى أن جاء يوم، لم أعد أتحمل كل ذلك، فأنا من النوع الذي يصغي إلى التوجيهات لكن دون أن أدفع دفعاً وأجبر على القيام بها.»

«انني لم أفكر يوماً بأنك تقبل أو توافق أن يقيدك أحد.»

«لم تفكري في ذلك، فأنت تعتقدين أشياء كثيرة عني، لكنها غير صحيحة يا دافينا. فأنا لست بعيداً عن الناس، فمثلاً أنت، كان من الممكن أن أتقيد بك من زمن بعيد، ولكنني كنت أخشى كما خشيت أنت بالضبط من أن ترفضينني. لقد فكرت طويلاً خلال البضعة أسابيع المنصرمة، وتوصلت إلى استنتاج واحد، وهو انني ربما كنت عاجزاً عن منح المحبة للآخرين، باستثناء ايمي بالطبع التي هي من صلبي، لكن بالنسبة لوالدتي والتي اشرت اليها مرة بذكاء منك، فقد كنت أخشى أن أدع أحداً قريباً مني، كي أضعف واعترف بذلك، لأنه يدل على الجبن والضعف، كما انني لا أحاسب نفسي على اعمال أعرف ضمناً بأنها سيئة، وأقبل بالأمور التي تتوافق مع مزاجي فقط.»

«لكنك جعلت سيليا تبقى...»

«لم أجعلها تبقى بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، انما اصريت على بقائها اكراماً لايمي حتى تترعرع وسط عائلة لائقة، وتوقعت من سيليا ان توافق على ذلك وان تعتني بها وتشعر نحوها كما أشعر أنا تماماً، لأنني كنت...»

«لأنك كنت طفلاً غير مرغوب فيه وسط عائلتك ولم ترض

لايمي ان تنمو وتشعر نفس الشعور الذي تشعر به الآن؟»

«نعم، ولا تتصوري يا دافينا كم أحب هذه الصغيرة وقد وجدت نفسي بحاجة إلى المحبة التي تمنحني اياها دون اي تحفظ او خشية مني، كما أنني كنت دائماً اريد من الذي يحبني، أن يحبني على هذا النحو، واعتقدت في يوم من الأيام ان سيليا تحبني بهذه الطريقة لكنني كنت مخدوعاً كلياً.»

فأشارت دافينا بلطف: «ان للمحبة وجوه مختلفة، ولا أعتقد بأنها كانت تحبها بأقل منك، انما لأنها كانت تعشق استقلاليتها.»

«نعم، اعرف ذلك، ولكنني لا أرى تصرفها صحيحاً، لذا وعندما شعرت بأنها تشعر بالاختناق لتقيدها بأمور ايمي وبأنها تميل للاستقلالية كما أميل أنا للرسم، لم أجبرها على شيء ولم أفرض عليها آرائي كما تفعل هي، إلى أن بدأت أشعر يوماً بأنها تريد أن تتملكني، فاضطررت أخيراً لأن افترق عنها لأنني لم أعد استطيع أن أتحملها وهي تحصي علي خطواتي كل دقيقة في كل يوم.»

«الهذا السبب كنت غاضباً في فرنسا؟»

«نعم، وكانت هذه احدى مداخلاتها.»

«ولنفترض بأنني لم آت البارحة...»

«لكنت ذهبت إليك، لأنه لم يعد يمكنني أن أبقى بعيداً وذلك لكي أعاقبك...»

«لكن... انها...»

«انها القساوة بعينها، نعم، لقد كنت غاضباً، وكما تعلمين يا دافينا، كان لي جانب مظلم في حياتي، واردت

معاقبتك لأنك شككت بي وكنت بذلك أعاقب نفسي في الوقت نفسه، لكنني وبعد أن عانيت الكثير لأجدك في اندورا...»

«لتجدني؟ لكنك لم تجدني، بل رأيتني... لماذا تحرك رأسك تنفي ما أقوله؟ ألم تلتق بي صدفة؟»

هدأها بلطف: «دافينا، دافينا، قصتي مع ذلك المدعو دافيرا لم تكن سوى حجة، فأنا عرفت مسبقاً بأنك في أندورا، وعرفت من المهمة التي أوكلت إليها.»

«كيف؟»

«كيف باعتقادك؟ لقد قلت بأنك تتبعت أخباري بواسطة الصحف، فهل تعتقدين أنني كنت أقل اهتماماً بتتبع أخبارك أنت خاصة بعدما قرأت الاعلان عن نشر كتابك الأول؟ لكنني كنت ما زلت مع سيليا في ذلك الوقت، لذا كان بامكاني فقط أن اتتبع أخبارك بعيني، وليس بقلبي.»

همست: «بقلبك؟»

«بالطبع بقلبي.»

«اذاً، لو أن سيليا لم تكن حامل...»

«نعم، لو أن سيليا فقط لم تكن حامل.»

أخذا يحدقان الواحد بالآخر يفكران في الحياة التي كادت أن تجمعهما لولا الظروف القاسية، ثم قالت دافينا: «اكمل حديثك.»

«لقد رأيت جاكي صدفة بالرغم من معاكسات القدر لي، انها تلك الصديقة التي دفعتك إلى الحفلة التي ادت إلى تعارفنا في بداية الأمر، ولا ادري فيما لو تذكرتني عندما كلمتها...»

قاطعته محتجبة: «آه، يا جويل!» كان السبب من

احتجاجها بانه لا يمكن لأي كان أن ينسى جويل بعدما يكون قد تعرف عليه.

ظهر عليه عدم الاهتمام وتابع قائلاً: «لقد سألتها عنك، واخبرتني عن الرحلة التي ستقومين بها إلى اندورا. ولحسن الصدف، كان ديفيرا يعيش هناك وقد مضى عليه وقت طويل وهو يلح علي ان ارسم له صورة لوجهه، فلبيت طلبه اخيراً وذلك لأجلك فقط... والباقي تعرفينه.»

فقالت بغباء: «ولغاية الآن لم تنفذ طلبه بالرسم الذي وعدته به.»

ضحك بابتهاج ثم قال: «لا. لم أنفذ له شيئاً.» ثم سألها بلطف: «هل يزعجك استمرار وجود سيليا على الساحة؟»

أجابته بصراحة: «نعم ولا، فقط لو أنها لم تتعرف عليك...»

«كما أنني وعندما افكر بمايكل انزعج يفور دمي، فعندما رأيته يخرج من منزلك، في مكان اعتاد أن يدخل ويخرج منه على هواه...»

نفت بحدة: «لا، بل هو يعلم بأنني أترك المفتاح تحت القدر الفخاري للأزهار، ولكنه لا، ليس من عادته أن يأتي ويخرج كيفما يشاء.»

تابع بحسد وغيرة: «تصورته يعاملك تماماً كما أعاملك، فأحسست بأنني أريد أن أقتله.»

«لكنه لم يكن كما تتصوره... على فكرة، أنا أحب سيليا.»

«وأنا كذلك، ولكن في بعض الأحيان، وطالما أنني أعيش معها. ما الذي قالته لك عني في ذلك اليوم الذي جئت فيه إلى هنا لأول مرة؟»

www.elromancia.com

«ليس الكثير.»

«انما كاف لأن يدفع بك للسفر إلى فلوريدا؟»

«لا، فكل الذي قالته هو أن أنساك وانسى امرك، وفي الحقيقة، أنت من اراد أن ينساني وينسى أمري، لأنني كنت أدرك انه لا يهمك لو افترقنا على تلك الصورة.»

«بل على العكس، لقد ذهبت لرؤيتك بعد بضعة أيام، فالتقيت بجارة لك وفهمت منها بأنك مسافرة ولست موجودة في ذلك الوقت.»

«يدهشني انك ما زلت تذكر عنوان منزلي.» تمتمت متذمرة وقد تذكرت كيف كانت تصرفاته في ذلك اليوم.

ابتسم وقال: «حتى ولو انني لم اتذكره، فقد صادف وقرأته على البطاقة الصغيرة التي علقت على امتعة سفرك.»

حدقت به ثم ابتسمت بضعف: «إذاً، لو انني لم أندفع وقتها إلى الفندق...»

«لكنا تجنبنا سوء التفاهم الذي أدى إلى ابتعادنا عن بعض لمدة خمسة أسابيع، ولكن كيف عرفت انت عنواني؟»

«لقد قرأته صدفة أيضاً عندما وقعت على دفتر الحجوزات في الفندق.»

تابع يبتسم لها وقال: «كنت سألحق بك إلى فلوريدا، لولا انني لم أصب من جديد في ذراعي...»

«جويل!»

«كما أن هيلين الحت علي بأن أذهب إلى المستشفى لمعالجتها.»

«كيف كانت الاصابة هذه المرة؟»

«كنت الاعب إيمي وأرميها في الهواء كأنها كرة.»

«آه يا جويل، هل أنت بخير الآن؟»

اشار برأسه بالايجاب ثم قال: «لكنني أعتقد أن الخمسة أسابيع المنصرمة كانت كالدهر بالنسبة إلي.» تنهد ليتابع قائلاً: «عندما كنت فتى صغيراً، اعتدت أن أنظر من خلال نوافذ الناس، أراقب ألفة العائلات، الأب والأم والأولاد، وأردت أن أكون مثلهم حين أكبر، أراقب الأب يلعب مع أولاده ومن ثم يشاهدون برامج التلفاز، وأتصور أن الأم في المطبخ في تلك الأثناء تحضر لهم طعام العشاء... وبعد ذلك أعود إلى منزلي البارد دون أم أو أب يستقبلانني بحنانهما، فأذهب رأساً إلى غرفتي وأحلم.»

«آه يا جويل، وهل لأن أمك لم تكن تتمتع بعاطفة الأمومة؟»

«نعم.»

«لكن من المؤكد أنها حملتك وضمتك إلى صدرها بعد ولادتك...»

«لا أعتقد ذلك، لكن هذا لا يعني أنها ليست طيبة، ولكنها تختلف عن بقية الأمهات، وكانت مهنتها التي تزاولها تبقيها مشغولة طوال الوقت، ولسوء حظي كنت ذلك الفتى الذي يشاركها حياتها.»

«وماذا عن والدك؟»

«لقد توفي عندما كنت في الثالثة من عمري، فادخلتني إلى مدرسة داخلية وأنا في السابعة من العمر، اعتقاداً منها بأنها الطريقة الأصح للقيام بها، وهذا ما قد فعلته أيضاً صديقاتها الأمهات.»

«انه أمر رهيب!»

«لا، لا أجده كذلك، فهذه أمور تحدث أحياناً.»

«ولو كان لديك ابن...»

صحح قولها بلطف: «لا. بل قولي عندما يكون لدي ابن.»

ابن؟ أخ صغير لايمي؟ وغمرتها عاطفة الأمومة وشعرت بالغصة، ثم سألته: «عندما يكون لديك ابن، هل سترسله إلى مدرسة داخلية؟»

«لا.»

سألته بفضول: «لماذا؟»

ابتسم مشمئزاً وقال: «لأنني أكره المدارس الداخلية.»

حدقت ملياً في عينيه وتصورته كفتى صغير ثم قالت: «سبب آخر يدعوك إلى عدم ترك سيليا وايمي.»

«نعم، فأنا أتذكر جيداً كيف انني نموت وكبرت دون والد يعطف علي، فلا اريد أن يحصل ذلك مع صغيرتي. ولأجلها اخترت أن أضع تمنياتي وأحلامي في المرتبة الثانية، هل تفهمين وتقدرين موقفي؟»

بالطبع تفهمه وتقدر موقفه، كما أنها احترمته أكثر لذلك. فأجابت: «نعم، وأعتقد أنك من أجل ذلك تحديتني وأردت معاقبتي للذي فعلته معك.»

«بالضبط.»

«اذاً، لماذا لم تقل لي كل ذلك منذ البداية؟»

«خشيت أن تسيء فهمي ويضيع الحلم الجميل الذي عاش في خيالي معك، لكنني وعندما وجدتك كيف تتصرفين وتتعاملين مع ايمي، ازدادت اليك حاجتي. وعندما كنت في المستشفى اعالج ذراعي المصاب، كان يمكنني أن أرى الزوجات وأولادهن قادمون لزيارة ازواجهن، وتمنيت ذلك

لنفسي، لذا وعندما قرأت اسمك بين لائحة المسافرين العائدين...»

دهشت وقالت: «لائحة المسافرين؟ هل عرفت في أي رحلة عدت فيها إلى هنا؟»

«طبعاً. فقد كنت اسأل طوال الأسابيع المنصرمة عن كل رحلة عائدة من فلوريدا.»

فسألته وقد استمرت دهشتها: «هل بامكانك أن تفعل ذلك؟»

«يمكنني فقط أن أسأل إذا كان اسمك بين أسماء العائدين، فيجيبونني بنعم أو بلا.»

تابعت تحدق به والدهشة لا تفارقها، حتى طرأ على رأسها فكرة فقالت متهمة: «أنت من جعل سيليا تتصل بي.»

ابتسم بهدوء، ثم أخذ يقهقه وبعد أن هدأ قال: «من السهل التعامل مع سيليا عندما تحشريها بأمور تخصها، لقد هددتها بأنني لن أذهب إلى المعرض اذا لم...»

«لكن لماذا لم تتصل بي أنت؟»

«لأنني لم أرغب في أن أكلمك على الهاتف، بل أردت أن أرى وجهك مع ما يحمله من ردات فعل.»

«ولكنني عندما جئت، كنت في حالة رهيبة.»

«نعم أعرف ذلك، لأنني أعتقدت بأن الطريقة الوحيدة في سياقك إلى الكلام، هي في أن أجعلك غاضبة، لكن الذي لم اتوقعه هو هذيانك وبوحك بكل ما يجيش في صدرك، وقبل أن أتمكن من الاستفادة أكثر من هذيانك، استغرقت في النوم العميق»

«نعم وتحقق شيء لطالما كنت تريده.» ثم وكأنها انتبهت

www.elromancia.com

لأمر هام سألته بسرعة: «جويل، هل تحاول أن تقول بأنك...»

«بأنني أريد الزواج منك، نعم. وعندما التقيتك مجدداً، غمرني شعور خاص تجاهك.»

«لكن عندما كنا في فرنسا حيث انفعلت غاضبة وتفوهت بأشياء غبية، اعتقدت أن صداقتنا كانت خطأ منذ البداية.»

«هذا ما قاله لساني، بينما في الحقيقة، شعرت بأنني ظفرت أخيراً بالمرأة التي قد تكون حلم حياتي.»

«ربما كذلك، انما أنت لا تعرفني جيداً.»

«نعم، أنا لا أعرفك جيداً، ولكنني أعرف عنك بعض الأشياء وهي الأهم، فأنت امرأة طيبة وذكية، شجاعة ومقدامة. كما أن معرفتي بأنني الرجل الوحيد في حياتك جعلني أشعر بأنني شخص فريد. اتدرين، مع أن الفترة التي قضيناها معاً في فرنسا كانت قصيرة، وبالرغم مما تخللها من مشاكل، كانت بالنسبة إلي من أسعد الأوقات التي قضيتها في حياتي.»

تأثرت من كلامه وسألته بدهشة: «أحقاً ما تقول؟»

«نعم.»

«ولكنك تقوم أحياناً بأشياء لا يتصورها العقل.»

«نعم أحياناً، وذلك حسب تصرف الآخرين معي، وأيضاً حسبما يكون مزاجي حينها.»

«لكنني ما زلت لا أفهم لماذا تريدني؟ لقد استغليتك، وقلت لك ذلك مراراً! وتوقعت منك أن تغضب مني وتشمئز!»

«في البداية طبعاً شعرت هكذا، لكن عندما فكرت بالأمر وبموضوعية أكثر، تذكرت بأن ما وجدته في عينيك يعكس

تماماً الذي وجدته في نبرة صوتك، وكلما فكرت بذلك أكثر، كلما أدركت أكثر أسباب انفعالاتك.»

«اذاً لماذا لم تتصل بي بعد انفصالك عن سيليا؟»

«لأنني كنت من بين المصابين في حادث تحطم الطائرة، ولازمت المستشفى عدة أشهر...»

«آه، ذراعك... وكانت تلك المرة الأولى التي تصاب فيها بذراعك.»

«نعم.»

فهمست بلطف: «لم أكن أعلم، حتى أن الصحف لم تكتب عن ذلك.»

«لا، فالحادثة كانت خارج هذه البلاد، ومن ناحيتي تعمدت أن لا يثار ضجة حول هذا الموضوع.» ثم تابع مداعباً: «هل كنت تطالعين الصحف دائماً؟»

«لا.» نفت بحدة جعلته يبتسم لها.

فقال لها: «كاذبة.»

لكنها اعترفت: «لا أنكر أنني كنت أحياناً القي نظرة على الصحف.»

«جيد، ويسعدني أن أسمع ذلك.»

«لقد قالت سيليا بأنك انقذت بعض الأولاد في تلك الحادثة...»

«حقاً؟»

«نعم. هل اصابتك كانت بالغة؟»

«لا، فقط تهشم بعض العظام...»

فقاطعته قائلة: «تهشم بعض العظام لا يجبرك على البقاء في المستشفى لبضعة اشهر!»

www.elromancia.com

«لقد أصبت ببعض الاشتراكات، كالالتهابات وتمزق في شرايين الجمجمة.»

فأردفت بغضب: «وكيف تقول ذلك بعدم اكتراث، الا تعلم بأنك كدت تقتل!»

«كدت، لكن ذلك لم يحصل، على كل، اشكر منك هذا الاهتمام.»

«يا ليتني كنت معك في أوقاتك العصيبة تلك.»

«هذا ما تمنيته أنا أيضاً، لكن كيف هو شعورك تجاهي الآن؟»

«انني، لكن...»

«لا اريد أن أسمع كلمة لكن.»

فقالت بتردد: «لكننا لم نتعرف على بعضنا جيداً بعد.»

«بعد؟ وما الذي تريدين معرفته أكثر من ذلك يا دافينا؟»

«لا أدري، ربما حتى أشعر أكثر بالاهتمام والحماية، وأن تكون أيامي سعيدة ملؤها المرح والهناء...»

«والثقة الدائمة في حياتك؟»

«نعم.»

«هل تعتقدين بأنه لا يمكننا تنفيذ ذلك؟ كنت دائماً أعتقد أن لا وجود لكلمة المحبة، ولكنني عدت وصدقت بوجودها بعد أن منحتني ايمي محبتها وبادلتها أنا تلك المحبة. فهل تشكين بي بسبب فشلي مع سيليا؟»

أومأت برأسها بالايجاب.

«لقد فشلت مع سيليا لأنني لم أشعر بنفس الشعور الذي شعرته معك، لم أقتنع بأن ما بيننا هو محبة، ولكن معك أنت يا دافينا...»

«لكنك عندما جئت إلى منزلي في اندورا، أظهرت البرودة وعدم الاكتراث.»

«لأنني كنت أخشى لو كلمتك بما أشعر به نحوك، أن يموت الحلم الجميل الذي عايشني لخمس سنوات، وخشيت أيضاً أن تسخري مني وتضحكي مستهزئة في وجهي.»

«لا، لما كنت فعلت ذلك.»

«حقاً؟ لكنها كانت بالنسبة إلي مجازفة لن يمكنني تحملها. لذا فقد ادعيت بأنني لا استطيع قيادة سيارتي، علماً مني بأن دافينا الطيبة سوف تهب لمساعدتي.»

«وهل كان هناك قطار في المحطة الأولى؟»

أومأ برأسه بالايجاب ثم أخذ يضحك عالياً.

«كما انك كنت تلاحقني، اليس كذلك؟»

«نعم، إلى أن أمسكتك أخيراً.»

«حقير.»

«نعم.»

«هل تحبينني؟»

«نعم.»

«سوف لن نوجه الاتهامات لبعضنا، بل سنتحاور بهدوء. موافقة؟»

«نعم. هل تحبني أنت؟»

«نعم، ولكنني صعب المزاج وموهوب في نفس الوقت، على فكرة، هل تعرفين ما هو شعوري الآن.»

«لا.»

«بأنني الرجل الأكثر حظاً على وجه هذه الأرض.»

«شعورك هو نفس شعوري... لكن هل سيبقى هذا الحال بيننا إلى الأبد؟»

www.elromancia.com

«نعم، أنا...»

توقف عن الكلام فجأة وقد سمع وقع خطوات في ردهة المنزل.»

«ابي؟ أنا هنا!»

فهتف بوهن: «لقد نسيت، انه يوم السبت.»

«السبت؟»

أجابها: «نعم!» وكانت ايمي قد دخلت إلى الغرفة والبهجة تشع على وجهها عندما رمت بنفسها على والدها.

«فينا!» هتفت الصغيرة بسعادة وكأنما دافينا هي أحب انسان ترغب في رؤيته، ثم تابعت: «اعذريني، ولكن هل يمكنني أن أستعيد الديدان؟»

وأكملت دافينا ما قد تتابع ايمي قوله عادة: «لم أتناول طعام العشاء، ولم اشرب الشاي.»

فأردفت ايمي بمرح: «كما وأنني جائعة جداً جداً!»

«نعم.» وافقتها دافينا ثم أخذت تضحك وتضحك إلى أن ذرفت الدموع، وكلما اعتقدت بأنها ستتوقف عن الضحك، تنظر إلى ايمي المبتسمة باشراق لتعود من جديد إلى الضحك ثانية بينما ايمي تردد: «آه، اعذريني، فأنا لم أتناول طعام العشاء...»

حولت دافينا نظرها إلى جويل وقالت: «هل تأتي ايمي كل يوم سبت لتمضي نهاية الاسبوع معك؟»

أجاب باشمئزاز: «نعم.» ثم هدر وقد دخلت سيليا فجأة: «لا! سيليا؟»

سألته سيليا مبتسمة: «نعم يا عزيزي؟»

بدأ يقول: «هل يمكنك ان..؟» ولكنه تراجع عن كلامه بحركة من رأسها.

وقالت: «انني ذاهبة لأمضي عطلة هذا الأسبوع في مكان بعيد حيث يحظر وجود الأطفال فيه.»

«اذا كنت بعملك هذا تردين لي الكيل كيلين لأنني جعلتك تتصلين بدافينا...»

«لا تكن سخيفاً.» ثم تحولت إلى دافينا وهزت رأسها قائلة: «لا بد وأنك مجنونة.» وأنحنت بعد ذلك لتضم ابنتها إلى صدرها قائلة: «الوداع يا ايمي، كوني عاقلة مع والدك.»

«عاقلة.» وافقت ايمي ووجهها ما زال يشع ابتهاجاً.

«سأراك غداً الأحد.»

«الأحد.» كررت ايمي مطأطأة برأسها.

تراجعت سيليا خطوة إلى الوراء، ثم ابتسمت بمكر إلى جويل وقالت: «انني سعيدة لأجلك، صدقيني وأتمنى لك السعادة أيضاً.»

أجابها بلطف: «نعم.» ثم أضاف مبتسماً ببرودة: «قد أكون أكثر سعادة لو أنك...»

ضحكت باستخفاف وقالت: «لا يمكنني، صدقني، بترينغهام.»

«آه، كلا.» وصرفها بغضب باشارة من يده. ثم سمعا ضحكاتها وهي خارجة من المنزل.

«بترينغهام؟» تساءلت دافينا.

كان جويل في تلك الأثناء ينظر إلى ابنته المبتسمة دائماً فأجاب: «انها جمعية للفنون تذهب اليها كل عام، ويحظر فيها وجود الأطفال، مرحباً يا صغيرتي.»

فسألته ايمي برغبة: «اقفز.»

أجابها بالموافقة وما عساه يفعل غير ذلك: «أقفزي.»

بانت علامات الرضى والسعادة على وجهها البريء، وجلست على الكنبة لتتمكن من خلع حذائها، ثم وقفت عليها لكنها وقبل أن تباشر بالقفز قالت كأنها تذكر نفسها: «انتبهي، لا تقعي.»

فوافقها جويل: «لا، لا تقعي.»

ثم سألته دافينا: «هل سألت سيليا اذا... أ... أنت تعرف...؟»

فهتف: «آه، لا.»

ضحكت دافينا وقالت: «حسناً يا جويل، فاذا كنت لا تستطيع الانتظار ليوم الاثنين، فمن الأفضل لك أن تخبر ايمي بأنها ستحظى بأم ثانية وكل ما يقتضيه الأمر.» وتوجهت فجأة نحو الباب، تضحك بابتهاج، ثم لوحت بيدها كأنها تودعه وقالت: «سأعود إلى منزلي لأغير ملابس السفر.»

«دافينا! إبقي هنا!»

«لن افعل.» أجابته بينما اتسعت ابتسامتها كابتسامة ايمي بالضبط.

تمـــت